هوارد فاست

تحرير العبيد

سبارتاكوس

ترجمة

حسن محمد أحمد

الكتاب: تحرير العبيد

الكاتب: هوارد فاست

ترجمة: حسن مُحَمَّد أحمد

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

فاست ، هوارد

تحرير العبيد / هوارد فاست, ترجمة: حسن مُحَمَّد أحمد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٦١ – ٦٨٣٧– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٥٠٤٢ / ٢٠٢٠

تحرير العبيد

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

أُهدي قصتي لابنتي راشيل وولدي جوناتان.. إنها قصة بطولة رجال ومساء لم يشهد التاريخ القديم مثلهم في الجرأة والإقدام، ولن ننسى أسماؤهم أو تُمحى مهما كرت الأيام ومرت الأعوام.

أبطالها كانوا ينشدون حرية الفرد وكرامة الإنسان – عاشوا أبطالًا وماتوا أبطالًا – أكتبها ليتخذ منها أبنائي وكل من يقرؤها عبرة، ويتسلحوا بقوة الإيمان في إحياء كلمة الحق والعدالة الاجتماعية – ويُكافحوا الاستبداد والظُلم في كل عصر وأوان – فلربما تحقق حلم سبارتاكوس في جيلنا المُعاصر.

هوارد فاست

نيويورك يونيو ١٩٥١

القسم الأول

– ١ –

كان لنبأ إعادة فتح الطريق ما بين روما الخالدة وكابوا في الأيام الأُولى من مُنتصف مارس ٧١ قبل الميلاد – رنة فرح وسرور، بعد أن ظلت جميع طُرق روما – ومن بينها هذا الطريق – مُغلقة لمدة أربعة أعوام كاملة شهدت فيها كثيرًا من حوادث العُنف والشغب، وامتنع استعمالها بالنسبة للمُسافرين والتجار.. حتى قِيل بحق أن الطُرق هي المرآة الصادقة لوجه روما؛ فإذا ما سادها الأمن وعمها الرخاء، انعكس ذلك على الجمهورية ذاتها.

وكانت مدينة كابوا الصغيرة بالإضافة إلى موقعها المُمتاز على الشاطئ وجمال بيوتها ومناظرها الطبيعية الساحرة تضم أكبر مصانع العطور في العالم؛ ففيها أفخر وأندر الزيوت المصرية، وياسمين شيبا وبنفسج خاليلي وزيوت الليمون والبرتقال والمسك والكافور وخشب الصندل والورد وما لا نهاية له ولا حصر، مما يأتيها بحرا من كل أركان الدنيا ويُباع فيها بنصف الثمن الذي يعرضه التجار في روما في زمن اشتد فيه إقبال الرجال والنساء على الزينة والعطر لدرجة الجنون.. فلا غرو أن سعد الرومانيون بنبأ إعادة المواصلات بينهم وبين كابوا.

– ٢ –

بعد ذلك بشهرين، وفي صباح يوم رطب جميل من مايو.. انطلق كايوس كراسوس تُرافقه شقيقته هيلينا وصديقتها كلوديا ماريوس في رحلة لمدة أسبوع لزيارة بعض أقاربهم في كابوا.. والثلاثة في مُقتبل العمر، أولهم كايوس كراسوس في الخامسة والعشرين ينسدل

شعره الأسود الغزير في حلقات خفيفة رائعة حول رأسه، يعرفه الناس بجمال وجهه وعراقة منبته يمتطي ظهر جواد عربي أصيل أبيض هدية له من أبيه في عيد ميلاده السابق، بينما استرخت الفتاتان فوق محفتين مفتوحتين تحمل كل منهما أربعة من العبيد الأشداء ممن يستطيعون العدو عشرة أميال دون راحة أو توقف.

وكانوا قد أعدوا أنفسهم للتوقف كل مساء، في رحلتهم التي تستغرق خمسة أيام، لدى بعض أقاربهم في القصور المُنتشرة على الطريق، وبذلك يصلون في النهاية دون مشقة أو إرهاق.

وكانت الفتاتان تعلمان أن الطريق يعج بالصلبان التي تحمل جثث من شملهم العقاب، ولكن لم يزدهما ذلك إلا إصرارًا وشغفًا لتشبعا فضولهما وتحققا بالعين ما سمعتاه بالأُذن، أما كايوس فقد كان يفخر دائمًا بقوة أعصابه ويقول أنه يكفيه أن يحمد الآلهة إذ يُتاح له مُشاهدة المصلوبين دون أن يكون أحدهم.

وكانت هيلينا تشبه أخاها في جمال المحيا وطول القوام، بالإضافة إلى أُنوثة طاغية ميالة للمرح الذي يصل إلى حد الطيش أحيانًا، على نقيض رفيقتها كلوديا الشقراء، فبالرغم من جسمها الممشوق الجميل فإن نظراتها الشاردة الباردة وجسمها المُمتقع الذي يُحاكي لون الموتى، ومظاهر التبرم والملل البادية في حركاتها دائمًا كانت تنفر كايوس منها، ولطالما تعجب ما الذي يربط هيلينا الجميلة بذلك التمثال البارد.

وفي مكان يقع على قيد أميال قليلة من روما، حيث يمر الطريق بأرض سعتها بضعة أفدنة من الرمال والصخور بدت للعيون أول مظاهر «العقاب»، وكان من المُحال أن تُخطئ العين ذلك الصليب الطويل الضخم وقد انعكس عليه نور الصباح المكر الباهت مُتوسطًا ذلك الفراغ الكبير كأنما قد اختار مُنظم ذلك العرض المُخيف هذا المكان بالذات ليفتتح فيه معرضه عن الجثث الآدمية.

وجلب كايوس عنان جواده حتى يتمهل في سيره، ثم مال ناحية الصليب، وأمرت هيلينا عبيدها بأن يتبعوه، وما أن صاروا جميعًا عند الصليب حتى همس أحد العبيد قائلًا

وهو يتنفس الصعداء:

– هل سنستريح هنا يا مولاتي؟

وأجابته هيلينا: أجل.. ضعوا المحفتين عن أكتافكم قليلًا.

كانت في الثالثة والعشرين رقيقة الطباع كسيدات أُسرها، وتمقت القسوة التي لا مُبرر لها سواء أكانت للعبيد أم للحيوان.

وكان يجلس على مسافة أمتار قليلة من الصليب، رجل بدين كان من الواضح أنه بالرغم من مظاهر الفقر الشديد البادي عليه.. من أصل طيب عريق، ربما كان في الماضي القريب أحد أعضاء الشيوخ يهز القاعة بصوته الرنان كلمته مسموعة بين الخاصة والعامة، أما الآن فهو مُتسول فقير لأنه انضم في الحرب إلى الجانب المهزوم فصارت تلك حاله.. قال في أدب:

– أستميحك عُذرًا يا سيدي المُهذب.. ويا سيدتي المهذبين لعدم الوقوف لكم احترامًا، ولكنه القلب.. القلب (وأشار إلى صدره) واراكم مُبكرين، فهل تقصدون كابوا؟ نعم، كابوا مدينة جميلة محبوبة لم أر أجمل منها أبدًا.. لا ريب في أنكم في زيارة للأقارب؟

وأجابه كابوس: لا ريب.

وابتسمت الفتاتان.. كان شيخًا وقورًا لكنه يتظاهر بأنه مُهرج ليكسب بعض الدنانير، واتسعت ابتسامته وهو يقول: أستطيع أن أقوم بمهمة المرشد والدليل والقصاص أيضًا فأحصل على قروش دون أن اضطر للتسول.

وأعطاه كايوس قطعة معدنية، وجلس العبيد على الأرض. ثم تعلقت أبصارهم جميعًا يتأملون الجثة المُعلقة على الصليب فوق رءوسهم، جثة رجل عارية حرقتها الشمس بنارها ومزقتها الطيور الجارحة، تحوم حولها الغربان في إصرار وفهم، وتراكم عليها الذباب أكداسًا، وكانت تميل للخارج كأنما توشك على السقوط والفرار من مكانها المقيت.. ورأسه مائل على صدره وقد انسدل الشعر الأصفر الطويل يخفي وجهه مما قد يحمله من

معالم الرعب والفزع.

وقال الشيخ: لا ترتعبوا.. سيداتي وساداتي لمنظر الإنسان.. إن روما هي التي أعطت وهي التي أخذت، والعقاب مُناسب للجريمة.. هذا الرجل يقف هُنا عنوانًا لما سترونه في الطريق.. هل تعرفون كم عددهم؟

وكانوا يعرفون.. بيد أنهم صمتوا ليعرفوا العدد المضبوط منه.. وعلى وجه الدقة والتحديد.

– ستة آلاف وأربعمائة واثنان وسبعون مصلوبًا.

وسرت رعشة في أجسام العبيد.. لم يلاحظها أحد لانشغالهم في النظر إلى الصليب.

وقال كابوس: يا لخسارة الأخشاب التي اسُتهلكت!

وسألته كلوديا في غباء: أهذا هو سبارتاكوس؟

فغمغم كايوس في ضيق: لم يعثر أحد على جثته أبدًا!

وأضاف الشيخ البدين: لأنهم قطعوها إربًا يا فتاتي العزيزة.

وارتعدت كلوديا ولاحظ كايوس لمعانًا مُفاجئًا في عينيها الخامدتين.. لم يجد له تفسيرًا.

واستطرد الشيخ يقول: قطعوها إربًا.. وهم يزعمون الآن أن سبارتاكوس لم يوجد قط.. ها.. ولكن هنا أنا موجود؟ هل أنتم موجودون؟ وهذه الستة آلاف وأربعمائة واثنان وسبعون جثة.. أهي موجودة فعلًا ومُعلقة على الطريق الابياني فيما بين روما وكابوا.. أم غير موجودة؟ وثمة سؤال آخر.. لماذا يقتلون كل هذا العدد الضخم؟ إن رمز العقاب بما فيه من حكمة الردع والتهذيب.. كان يكفي أن يكون واحدًا أو عشرة.. فلماذا هذا العدد كله؟!

وأجابته هيلينا في هدوء: كلاب استحقوا الموت.

– أحقًا؟ ولكن لماذا يذبح القصاب أكثر مما يحتاجه السوق فيعرض لحومه للتلف والبوار؟ سأقول لكم لماذا.. ليرفع الأسعار عندما يقل المخزون من الخراف.. ثم ليُؤكد للناس أنه يملك الكثير مما يستطيع الاستغناء عنه.

والآن.. انظروا إلى هذا (وأشار بعصاه الرفيعة إلى الجثة) إنه فيرتراكوس ساعد سبارتاكوس الأيمن، وخير من أنجبته الجمهورية من الجنود البواسل الشُجعان، لقد حضر المئات قبلكم ليروه.. وكسبت بفضله بعض الدنانير.. فقد شاهدته وهو يموت.. أجل، أربعة أيام بلياليها وأنا أجلس بجواره حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.. كان في قوة الثور! وربما ظل حيًا شهرًا أو أكثر لولا أنهم قطعوا له شريانًا وتركوه ينزف حتى مات.. وحسنًا فعلوا؛ فإن ما تسرب منه من الدم ساعد جسمه على الجفاف.. كما تصنعين القديد يا سيدتي في حرارة الشمس، وربما استمر شهورًا قبل أن يجيف بأقل رائحة مُمكنة، لقد ظل يلعن ويسب كل من أقبل لرؤياه والفرجة عليه.. وأنا أولهم، ولكني لا أحمل له أي ضغينة، بل ربما قلت له أن سوء حظك قد جلب لي حسن الحظ.. ونحن مُتساويان، فلقد تعذبت في مماتك.. وها أنا أتعذب حتى أظل حيًا! ومع ذلك فلم تعجبه فلسفتي وأطبق شفتيه في اليوم الأخير، ولم ينطق في النهاية سوى عبارة واحدة.. أتعرفون ماذا قال؟

وهمست كلوديا: ماذا؟

– سأعود.. ومعي الملايين! تصوروا.. كانت هذه آخر كلماته!

وتساءل كايوس مُتعجبًا بالرغم منه، فقد تأثر بسحر الرجل:

– وما الذي كان يقصده بذلك؟

– لست أدري يا سيدي الشاب ما الذي كان يعنيه، لقد حاولت أن أنخسه بعصاي ليتمم كلماته، ولكنه صمت إلى الأبد.. أما قلت لكم أنه ساعد سبارتاكوس الأيمن؟ أواه يا سيدي لو شاهدتما سبارتاكوس بلحمه وشحمه.. إن أقوى القلوب وأشجعها كانت ترتجف وترتعد لمرآه لو تقابل معها على هذا الطريق.

وقال كايوس في غضب وهو يتحسر على قطعة النقود التي منحها للشيخ:

– أعتقد أننا سمعنا ما فيه الكفاية.. هيا بنا نُواصل رحلتنا!

– ٣ –

أولت روما إنشاء الطُرق اهتمامًا كبيرًا.. وربما استغرقت أية أُمه آلاف الأعوام لتشيد ثلث ما شيدته روما من الطُرق في تلك الأيام – وكان الشيوخ لا يكفون عن المُطالبة بإنشاء جديد منها – فيسارع المُهندسون إلى التخطيط والمقاولون إلى الإشراف والتنفيذ بفضل جماعات العمل بسواعدهم القوية ينطلقون كالمردة يزيلون الجبال العاتية في لمح البصر والقناطر يقيمونها فوق الوديان والأنهار.. فمتى أرادت روما.. فلن يقف في وجهها جماد أو إنسان!

وكانوا يطلقون على الطريق الكبرى ما بين روما وكابوا اسم الطريق الابياني، وهو كباقي الطُرق عريض.. قاعدته من الزلط والأتربة البركانية ومرصوف بالحجارة.. كان مثلًا رائعًا للمعجزة البشرية، ولما كانت عليه روما من طول الباع في فنون الهندسة والتنظيم.

وكانت ثمة علامات تشير إلى المسافة كل ميل، وإلى ما قطعه المُسافر وما بقى له في الطريق من روما إلى كابوا، بالإضافة إلى فنادق ومرابط للجياد في نهاية كل خمسة أميال يأوى إليها المُسافرون للراحة والمبيت حيث يجدون الجياد الصافنات، والطعام الجيد والشراب المُعتق.

ولم يكن الغرض من إنشاء تلك الطُرق هو مجرد الترف، بل لأنها الشرايين التي تمد روما بالحياة، فعليها تسير قوافل التجار.. وفوقها تنطلق الجيوش حيثما شاءت في سرعة ويُسر فتخمد الثورات في الحال وتُسيطر بيد من حديد على كل مشارف الجمهورية تحميها من كل عاد أثيم.

وكان الشيء المُميز للطري الابياني – دون كافة الطُرق – هو جثث المصلوبين مُتراصة على طوله فوق الصلبان الخشبية الضخمة، تحكي قصة من أعجب قصص التاريخ.

طلعت الشمس وبدا الصباح حارًا على نقيض ما توقع كابوس، وحمل الهواء رائحة الجُثث المُتعفنة، ولم تنفع مناديل الفتاتين الغارقتين بالعطور في القضاء عليها، مما اضطر كايوس لأن يعرج على أي مكان للراحة بعد أن ظهرت بوادر التوعك على رفيقتيه.. ووجدوا أول فندق في طريقهم، ولحُسن الحظ لم يكن ثمة صلبان على مسافة ميل منه.

وكان مُشيدًا على النظام الإغريقي من طابق واحد له شرفة عريضة جميلة أُقيمت فوق قنطرة يجري النهر من تحتها.. امتدت عليها الموائد والمقالد تُظللها أشجار السندبان التي أضفت على المكان جوًا بهيجًا ورائحة طيبة.

ولم تكن تسمع سوى خرير الماء مُختلطًا بهمهمة النُزلاء وهم يتبادلون الحديث حول الموائد بصوت خفيض، كانوا خليطًا من الفُرسان الذين يحترفون التجارة ورجال الأعمال وأصحاب المصانع وتُجار الرقيق.. ولم يكن مسموحًا للأجانب أو الجنود بالجلوس في هذا المكان، بل في غُرفة أُخرى مُنعزلة في الخلف.

وطلب كايوس أطباقًا من لحم البط المشوي، وعصير البرتقال المُثلج، ومضى يقطع الوقت مع الفتاتين في الحديث عن آخر المسرحيات التي شاهدوها في روما.. والتعليق عليها.

وبينما هم مُنهمكون في تجاذب أطراف الحديث، شعر كايوس برجل يقف بجانب مائدتهم، وكانت كل الموائد مشغولة.. وأقبل هذا الرجل، وربما بدا من هيئته أنه أحد التُجار.. يرجو أن يسمحوا له بالجلوس معهم.

كان يقول في أدب: سأتناول لقمة صغيرة وانصرف، ومعذرة إن قطعت عليكم حديثكم!

وكان طويل القامة مُمتلئ الجسم حسن المظهر يبدو عليه الثراء، وكانت تلك حال التُجار جميعًا في ذلك الوقت، ينتمون إلى طائفة الفُرسان، ولا ينقصهم إلا الانتماء إلى

إحدى الأُسرات النبيلة المعروفة، وكثيرًا ما كانوا يعمدون إلى شراء ذلك بالمال.

وقال: اسمي جايوس ماركوس.. أرجو ألا ترفضوا طلبي.

وقالت هيلينا: تفضل بالجلوس.

وقام كايوس بتقديم نفسه ومن معه.

وقال الفارس: أتذكر أنه كانت لي بعض العلاقات بأُسرتكم.

– علاقات؟

– مُعاملات في الماشية، فأنا أتجر في الماشية واللحوم، وصاحب مصنع كبير للأمعاء المحشوة باللحم المفروم «سجق»، وأمتلك مزرعة كبيرة في روما وأُخرى في «تراسينا» حيث أنا قادم الآن، فإذا أكلتم سجقًا فلا بُد وأنه من مصنعي.

وقال كايوس في نفسه «هذا الرجل له عينا الذئب.. ولا أشعر نحوه بميل، وهو لا يحبني أيضًا، ومع ذلك فأراه مسرورًا لجلوسه معنا.. يا له من خنزير!».

وكأنما قرأ الرجل أفكاره فقال: وأنا أُربي الخنازير أيضًا!

قالت هيلينا في مرح: يسرنا أن نُقابلك، ولسوف أحمل لأبي تمنياتك الطيبة!

وقرأ كايوس في عيني الرجل أنه يشتهي هيلينا التي أعجبته من أول نظرة، ورآهما يتبادلان الابتسام، وتمنى كايوس أن يقتله.. وزادت كراهيته لشقيقته.

وأقبل الخادم بالطعام، ولاحظت كلوديا أن الرجل لم يأكل اللحم الذي في طبقه فسألته في غباء:

– لعلك قد تأثرت بما رأيت في الطريق؟

– في الطريق؟

– الجثث فوق الصلبان.

– آه.. إني لم أتأثر لمنظر الموتى، ولكني أكره التبذير.

وتساءلت كلوديا وهي تقطع بعض البرتقال المُثلج:

– أي تبذير؟

فقال ماركوس في هدوء: أقصد رجال سبارتاكوس.. كلهم أجسام مُمتلئة صحة، يزن كل منها مائة وخمسين رطلًا.. معلوفة جيدًا، فإذا قدرنا أن عددهم ستة آلاف، كانت لحومهم طازجة.. وهم الآن مُعرضون للتلف.

وذهلت هيلينا وقالت في نفسها: لا يُمكن أن يكون الرجل جادًا في حديثه.

أما كلوديا فقد كانت تعرف أن الرجل غير هازل.

وسأله كايوس ساخرًا: ولماذا لم تتقدم بعرضك على المسئولين؟

– رفضوا بعد أن عرضت شراء ربع مليون رطل.

واشتدت حيرة كابوس.. تُرى ما الذي يرمي إليه الوغد؟ لعله يقصد تخويفنا.

وهمست كلوديا: ربع مليون رطل من الرجال؟

– إنهم في نظري بضاعة.. أو كما قال شيشرون بضاعة تُضاعف الدخل القومي، إني أُسويهم على النار البطيئة، وأفرمهم وأخلطهم بلحم الخنزير والدهن والملح، أُصدر بعضها إلى بلاد الغال، والبعض لجنودنا في مصر.. بأثمان مُتهاودة.

وغمغم كابوس: إنك لا تحسن الهذر يا سيدي.

وشد ما دهش حينما أجاب الرجل: ليست هذه دُعابة يا سيدي، لقد سألتني السيدة فأجبتها صادقًا، ولا أخفي عنكم أني ابتعت فعلًا ربع مليون رطل من العبيد، وصنعتها سُجقًا!

وعندئذ قالت هيلينا: ما سمعت في حياتي بمثل هذه القذارة والوحشية يا سيدي.

فنهض التاجر مُنصرفًا وهو يقول: سلي عمك يلبوس يا سيدتي.. فربما لم يُشاركك هذا الرأي، إنه هو نفسه الذي عقد معي تلك الصفقة، واحتجز لنفسه عمولة طيبة نظير إبرامها.

وقالت هيلينا: أعتقد أن هذا الرجل صادق.

وهتف كابوس: ماذا تقولين؟! إنها فرية اختلقها الوغد بقصد إهانتنا.

فقالت هيلينا: إن ما يُميزني عنك يا عزيزي كابوس.. هو إني أعرف متى يكون الرجل كاذبًا أو صادقًا.

وتضاعف امتقاع جلد كلوديا.. واستأذنت في أن تستريح، وكانت هيلينا تبتسم.. فقال لها كابوس:

– يا لأعصابك الحديدية يا هيلينا!

– لماذا؟

– لأني على الأقل، لن أضع السجق فوق مائدتي مرة أُخرى!

– أما أنا فما أحببته وما أكلته في حياتي!

– ٥ –

استأنف الثلاثة رحلتهم حتى مالت الشمس نحو الغروب، فانحدروا في طريق جانبي ليقضوا ليلتهم في فيلا سالاريا حيث يقيم أنطونيوس كابوس، أحد أقارب كايوس كراسوس وهيلينا من ناحية الأُم – ويمتد الطريق الفرعي المذكور مسافة أربعة أميال من الطريق الابياني الكبير – وسط مُمتلكات ومزارع أنطونيوس حتى القصر نفسه – وهو طريق مُمهد أعتنى صاحبه بكل شبر لقيه حتى صار وحده مُتعة للناظرين، فقد أُقيمت على جانبيه الورود والأزهار – ويخترق بساتين الكروم وأشجار الزيتون، وقد رُصِفَ بالزلط الملون ورُصت فيه الأرائك الرخامية حول النافورات ذات التماثيل الرائعة مُختلفة الأشكال

والألوان، مما شرح صدور أصحابنا وبدد بعض ما لاقوه في طريقهم من جثث المصلوبين المُخيفة ورائحتها التي لا تُطاق.

وقد وافقت تلك الساعة، وقت عودة الماشية إلى الحظائر.. آلاف منها تدق الأجراس حول أعناقها، يسوقها مئات من الرقيق.. وكان من العسير أن تُميز أحسنهم حالًا.. الحيوان أو الإنسان!

وتذكر كابوس.. ما عليه أنطونيوس من ثراء فاحش، فقد كانت التقاليد تُحرم على النُبلاء وسليلي العائلات الكبيرة الاشتغال بالتجارة.. بل كان ذلك ممنوعًا بِحُكم القانون، بيد أن أنطونيوس كان يرى في القانون ثغرات ينفذ منه، فهو بوساطة أعوانه الكثيرين يستثمر أكثر من مليون قطعة ذهبية في المُعادلات التجارية بربح يصل مائة في المائة، كما أنه يمتلك نصف أكبر مناجم الفضة في إسبانيا.

وكانت هذه المزرعة – وحدها – تضم أكثر من عشرة آلاف فدان من الحقول والغابات، فلا غرو أن حفل قصره بكبار رجال الدولة.. ومائدته بأشهى وأفخر أنواع الطعام والشراب!

واشتدت دهشة كلوديا وهي تتأمل ما حولها من مظاهر الثراء وجمال الطبيعة.. وهتفت:

– هذا يفوق ما شاهدت في أحلامي!

وضاعف من دهشتها روعة القصر وفخامة بنائه وما حوله من حدائق وأزهار، وهم يقتربون من درجاته الرخامية العرية، فتمنت لو قضت عمرها كله بين جوانبه، ولو كان ذلك دون طعام أو شراب!

وكان أول من لحهم ابنتا أنطونيوس اللتان أسرعتا للترحيب بهم، وتبعتهما والدتهما جوليا، وهي سيدة جميلة سمراء تميل للبدانة قليلًا، وبعد لحظات خرج أنطونيوس بنفسه من إحدى الغرف ومعه ثلاثة رجال، ورحب بكابوس وشقيقته ورفيقتها ثم قدم لهم

ضيوفه.

وكان كايوس يعرف اثنين منهما.. لنتليوس جراكوس أحد مُحترفي السياسة في روما، وليسنيوس كراسوس، القائد الذي برز اسمه في حرب سرفيل، وأما الثالث فكان غريبًا عن كابوس.. أصغر الجميع سنًا – يكاد يكون في عُمر كايوس – عرف أنه يُدعى ماركوس توليوس شيشيرو.. تشع من عينيه بوادر العلم والذكاء.

أما عن العبيد الثمانية – حملة المحفتين – فقد جلسوا القرفصاء خارج القصر ترتعد عضلاتهم التي كساها العرق من شدة النصب والتعب والإرهاق، وبغتة.. انفجر أحدهم – أصغرهم سنًا حيث لم يزد عن العشرين عامًا – انفجر يبكي بحرقة دون أن يهتم به الآخرون، وظلوا كذلك حوالي ثلث ساعة حتى حضر أحد عبيد القصر واقتادهم إلى الحظائر ليجدوا المأوى والطعام حتى الصباح.

– ٦ –

سعد كايوس حينما وجد أن صديقه ليسنيوس كراسوس يُشاركه في الحمام، فقد كان الأخير رغم تفاوت السن بينهما.. لطيف المعشر واسع الأُفق في كل ما يدور بين أبهاء روما، قوي الجسم تجري دماء الشباب في عروقه وكأنه لم يتجاوز الثلاثين.

وسأله كراسوس إن كان قد قدم من روما، فأجابه كابوس:

– أجل، ونحن مُسافرون إلى كابوا غدًا.

– وهل تأثرتم من مظاهر العقاب في الطريق؟

– كنا تواقين لِمُشاهدتها، ولم تُؤثر فينا كثيرًا رغم أن المنظر كان كريهًا نوعًا ما، والطيور الجارحة تُمزق الجثث وتفتح البطون بمخالبها ومناقيرها الحادة، خاصة وقد ساعدت حرارة الجو على انتشار الرائحة في الطريق، الأمر الذي ساء العبيد وأفسد صحتهم.

وابتسم القائد قائلًا: ربما أسفوا من أجل رفاقهم.

– هذا جائز، ولكن هل تعتقد أن الرقيق يتمتعون بإحساس الآدمي؟ فمثلًا عبيدي حملة المحفات ولدوا وترعرعوا بين حظائرنا وألهبت السياط جلودهم عشرين عامًا أو تزيد، وطالما كانوا أقوياء الأجسام فهم لا يُفضلون الثيران في شيء، ومع ذلك فربما كُنت تفهمهم أكثر مني، فهل تظنهم قد حزنوا لمصير سبارتاكوس؟

– أجل، ذلك هو الشعور الغالب بينهم، وأصارحك الحق أني لم أحب مناظر الصلب بالجملة، لقد أسرفنا في الانتقام، والدماء لا تُولد إلا الدماء، وهذا ما أخشاه على أنفسنا!

– ولكنهم ليسوا إلا عبيدًا!

– إن ما يحب شيشيرو أن يُكرره دائمًا هي قوله: «إن العبد آلة ناطقة والماشية نصف ناطقة.. أما الجماد فهو آلة صامتة». وذلك أبلغ وصف سمعته، فشيشيرو من الحُكماء، إذ لم تكن تعلم.. بيد أنه لم يضطر لمحاربة سبارتاكوس، ولم يسهر الليالي الطوال ليُفكر فيما عساه يُقدم سبارتاكوس عليه ويُفكر فيه، فحيثما يجمعك بالعبيد ميدان حرب أو قتال.. تكشف فجأة أنهم ليسوا آلات ناطقة، بل شياطين مردة!

– هل كنت تعرفه؟ – أقصد سبارتاكوس – معرفة شخصية؟

وتبسم القائد وهو يستعيد ذكرياته:

– لا، لقد كنت أتصوره في خيالي، وأرسم طريقة تفكيره في الكر والفر، ولم أعلم أن إنسانًا كان يعرفه تمامًا ويستطيع أن يصنع لوحة له، بخلاف أولئك الذين عاشوا معه – وتراهم مُعلقين في الطريق الابياني – أما الرجل نفسه.. فصار حلمًا في الخيال!

وعجب كايوس في نفسه.. فهذا القائد أحد أبطال روما البواسل، قاد جيوشه لمحاربة العبيد حينما أوشك العبيد أن يهزموا جنود الجهمورية كلها، ومع ذلك فهو إنسان بمعنى الكلمة لا ينقص من قدر عدوه ليبني نفسه فوق أشلائه مجدًا.. وعاد يسأله:

– ولكن.. كيف كان شكله؟! أقصد أوصافه؟

وابتسم كراسوس وهو يقول: طالما فكرت.. فيما عساه يعرفه هو من أوصافي؟ ولكنه عرفني في ميدان الوغى وكان يصيح بأعلى صوته: «قف مكانك يا كراسوس.. أيها الوغد!».

ولم يكن يبعد عني بأكثر من أربعين ياردة حينما بدأ يشق طريقه نحوي وكان منظرًا مُذهلًا، فلم يكن ضخم الجثة ولا قويّ البنية، لكنه كان مُمتلئًا حماسة يتفجر غضبًا.. ولقد أفلح في اختراق نصف المسافة بيننا ولا بُد أنه قتل على الأقل أحد عشر رجلًا في اندفاعه الجنوني نحوي، ولم يتوقف إلا بعد أن قطعناه إربًا!

– إذن.. حقًا ما يُقال أن أحدًا لم يعثر على جثته قط؟

– نعم.. هذا حق، قطعوه إربًا كأنما لم يُصدق جنودي إنه مات، ولم يبق منه شيء.. هل تعرف كيف يكون الميدان.. لحم ودماء؟ أما لمن هذا اللحم أو تلك الدماء فلن يعرف أحد، ولقد ذهب من حيث أتى.. من العدم.. وإلى العدم، إننا نعيش بالسيف ونموت بالسيف، وتلك كانت خاتمة سبارتاكوس.. وأنا أحييه وأرفع يدي احترامًا لذكراه!

– إذن.. فأنت لا تكرهه؟

ومط القائد شفتيه وهو يقول: لقد كان جُنديًا باسلًا، وفي نفس الوقت عبدًا لعينًا قذرًا.. فأيهما أكره؟ إنه الآن في عداد الموتى.. أما أنا فحي أُرزق.. وذلك من حُسن طالعي.

– ٧ –

انتهى القوم من العشاء الفاخر، وهرول العبيد يعدون المائدة للشراب، وانسحبت السيدات يخلين الجو للرجال، يتبادلون الحديث في مُختلف الشئون حول الكأس والكأس.

وكان أنطونيوس كابوس، كأي إقطاعي في ذلك الزمان، يبسط نفوذه على مملكته

الصغيرة يحكمها حُكمًا استبداديًا مُطلقًا بكل ما حوت من إنسان أو حيوان أو جماد.

وكان يفخر بِعلمه الغزير في فلسفة اليونان وآداب الإغريق وتاريخهم، كما كانت له دراية بالطب بجانب طول باع في السياسة، وخبرة طويلة في شئون الاقتصاد والمال.. وكان يحب أن يشعر مجالسيه بكل ذلك أينما توسطهم.

ومضى كايوس ينصت إليهم وهو يتأمل الحاضرين.. خاصة شيشيرو، الذي لاحظ كايوس أنه يفرض آراءه على الحاضرين وهو يُحدثهم بصوت هادئ وابتسامة ثابتة على شفتيه، وفي مرة لمح شيشيرو ينظر إليه في إمعان بعينيه الثاقبتين وكأنه يقول له «آه» أنا أعرفك يا فتى.. أعرف باطنك قبل ظاهرك. اقرأ كل أفكارك.. كأنها كتاب مفتوح أمامي، مما جعل كايوس يتحرك في مكانه قلقًا!

وكان القائد كراسوس ينصت في أدب وقد جلس مرفوع الرأس بوجهه البرونزي القوي وشعره الأسود الجميل. أما جراكوس السياسي والذي كان يجلس على الطرف الآخر من المائدة.. فقد بدأ بجسمه البدين الضخم وكأنه برميل كبير.. ليس له عُنق من فرط طيات اللحم حول رقبته، وفي كل أصابع يديه المُكتنزين خواتم كبيرة ذهبية مُحلاة بالأحجار الثمينة، يتحدث بصوت جهوري عميق.

وكان رب الدار يشرح لضيوفه لماذا يُفضل العبيد لجر المحاريث عن الجياد!

وقال شيشيرو مُوافقًا:

– أصبت.. فالحيوان المُفكر أفضل بكثير عن الحيوان الأعجم.. وهذا منطقي، كما أن ثمن الجواد ضعف ثمن العبد.. ولم توجد حتى الآن أُمم من الجياد والخيول لغزوها وتأسر منها مئات الأُلوف ونعرضها للبيع بالمزاد. ثم.. لو أنك استعملت الجياد.. لقتلها العبيد!

فقال جراكوس: لا أُوافقك في هذا..

– سل مضيفك!

وأومأ انطونيوس برأسه وقال: هذا حقيقي؛ فالعبيد يكرهون الجياد.. كما يكرهون كل شيء نملكه فيما عداهم فقط (وملأ كاسه ثم أضاف) وهل سنتحدث عن الرقيق؟!

فقال شيشيرو: ولِمَ لا؟ إنهم معنا دائمًا.. ونحن المُصدرون الأوائل للعبيد، بل إنهم سبب وجودنا نحن الرومانيين إذا ما فتشت عن الحقيقة، فمضيفنا يعيش من دخل مزارعه الواسعة بفضل العبيد الذين يبلغون ألفًا.. وهذا كراسوس اسمه على كل لسان في روما وأصبح أشهر من نار على علم بفضل حربه ضد العبيد.

وجراكوس رجل السياسة الحازق، جمع ثروته الطائلة – ولا أحسده عليها – من سوق الرقيق؟ وحتى هذا الشاب «مُشيرًا إلى كايوس وهو يبتسم» من الذي رعاه وأرضعه وسهر عليه ووضع الطعام في فمه مُنذ كان في المهد إلا العبيد؟

واحمر وجه كايوس، بينما قهقه جراكوس ضاحكًا وهتف: وأنت يا شيشيرو؟

– عليهم اللعنة! في بيتي ستة فقط يُسببون لي صُداعًا وإملاقًا.. فلا أجد ما يكفي لإطعامهم وكسائهم.

وقال كراسوس: ما زلت أُعارض رأيك يا شيشيرو.

– هذا لأننا نكره سماع الحقيقة التي تصفعنا دائمًا بواقعها مر المذاق.. أما الكلام المزيف الكاذب فهو يرضينا لأننا لا نعترف بالمنطق كما يفعل اليونانيون، ولا سبيل للإنكار بأن روما لم تحتل هذا المركز الرفيع إلا بفضل نجاحها في استخدام الرقيق.

فقال أنطونيوس مُحتجًا: لقد شهدت الدنيا نظام الرق قبل أن تُخلق روما.

– أجل، كان للإغريق حقول وعبيد وكذلك قرطاجنة، ولكننا تركنا حقول اليونان للبوار، كما حطمنا قرطاجنة؛ لنحتكر أسواق العالم الخارجي، وبينما يمتلكون هُناك عبدًا واحدًا لكل شخص، فنحن هُنا نمتلك بالعشرات.. وأنت يا سيدي القائد، خير من عرف سبارتاكوس.. فهل كان في وسع أُمة أُخرى أن «تنتج» مثلك؟

وغمغم كراسوس مُتعجبًا: وهل نحن الذين أنتجنا كراسوس؟ كنت أظنه تخرج في

الجحيم!

واستطرد شيشيرو يقول: هذا أنطونيوس يُحدثنا مثلًا عن عدد الفلاحين الذين كانوا يعملون في أرضه.. أنا أعلم أنهم لم يقلوا بحال عن ثلاثة آلاف أُسرة بمتوسط خمسة أفراد، فيكون الجميع خمسة عشر ألف نسمة.. ذهبوا كلهم للجيش أيها القائد كراسوس.. وكانوا جُنودًا شُجعانًا.. أليس كذلك؟

– أجل.. أجل، أبطال لا يهابون الموت، وشد ما تمنيت لو تضاعف عددهم.

– ولكنهم – والأهم من ذلك – كانوا مُزارعين مهرة، يزرعون القمح والشعير.. والفاكهة والأعناب، فلما ذهبوا اضطررنا إلى استخدام العبيد في الزراعة.. فماذا حدث؟ هل ينتج الآن الفدان الواحد نصف ما كان ينتجه الفلاح المُتخصص؟

ووافقه أنطونيوس قائلًا: بل أقل من الربع.

وعندئذ تساءل شيشيرو في حماس: هل ساءلت نفسك عن السبب؟

– أعتقد أنهم فاقدو الحماس للعمل.

– تمامًا.. ولماذا يتحمسون لخدمتنا وتنمية مواردنا ومُضاعفة القمح والشعير الذي يحتاجه جنودنا؟ لماذا لا تمتلئ قلوبهم نحونا بالحقد والكراهية؟ لماذا لا يدمرون كل غالٍ ونفيس لك وأنت تلهب ظهره دائمًا بالسياط.. وترغمه على العمل وهو مُكبل بالأغلال والأصفاد؟ هذا هو القول الذي صنعناه بأيدينا أيها السادة، ونحن الآن نحيا في أُمة يسيطر فيها العبيد على كل شيء في حياتنا، أما مواطنونا الفلاحون.. فماذا وجدوا بعد أن عادوا؟ زوجة هربت مع عشيق.. أولادًا غير شرعيين.. فمضوا إلى مواخير روما وأزقتها يشيعون فيها الرعب والمُشاجرات ويغرقون أنفسهم في أردأ أنواع الخمور لينفقوا دنانير قليلة مُنِحَتْ لهم نظير أراضيهم التي طُرِدُوا منها، بل أن معظمهم وقد اعتاد حرفة القتل والدماء.. لم يعد يحترم مهنته الأصلية أو يحبها.. بل أصبح وجوده في خدمتي وخدمتكم شرًا ووبيلًا علينا.. ولم يعد أمامنا إلا العبيد! أُصارحكم الحق أيها السادة أنه إذا لم ننفض

أيدينا من ذلك النظام.. نظام الرق، فلا بُد أنهم سيقضون علينا عاجلًا أو آجلًا!

لذلك لا أخفي عنكم أني أشعر بالسعادة أيها السادة إذا أُتيح لنا القضاء على ثورة العبيد.. أما أُولئك الذين يتمسكون بالمُثل العُليا.. ويولون نائحين باكين لأننا قتلنا وصلبنا ستة آلاف عبد.. فإنني أقول لهم ساخرًا.. أما ذاك أو كنتم تعلقون في أمكنتهم.. ولهذا كان العقاب.. ضرورة حتمية حتى تعيش!

القسم الثاني

– ١ –

كان لنتليوس باتياتوس، مُتمطيًا جوادًا أصفر هزيًلا ويقترب من مُخيم جنود كراكوس.. وهو أتعس المخلوقات قاطبة.. فالجو بارد كئيب والمطر يهطل رذاذا فبلل ملابسه، وشعر بالوحشة في ذلك الطريق المُقفر والذي يبعد عن بيته في كابوا عشرات الأميال. وكان قد تلقى أمرًا من القائد كراكوس بأن يحضر على الفور لاستجوابه في مسائل هامة للغاية.. وهو يعلم أن لا سبيل إلى التردد في إطاعة أمر قائد الجيش إذا كانت البلاد في حرب.. حيث الكلمة للسيف وحده.. لا عدالة ولا قانون!

وبينما هو غارق في أفكاره، أيقظته أصوات الحُراس في الطريق تأمره بالوقوف، فأطاع على الفور فزعا.. وظل فوق جواده لا يتحرك، حتى أقبل حارسان على مهل، وسألاه من يكون؟

قال: اسمى لنتليوس باتياتوس..

ولأنهما كانا فلاحين جاهلين، لم يعرفاه، وسألاه: إلى أين يظن نفسه ذاهبًا؟

– أليس هذا طريق المُعكسر؟

– إنه هو..

– حسنًا.. أنا ذاهب إليه.

– ولماذا؟

– لأتحدث مع القائد.

– أهكذا؟ وماذا تبيع؟

ولعنهم في سره، فالمطر قد بدأ يشتد، وكأنهما يقصدان أن يطيلا بقاءه.. ما داموا جميعًا في العراء وتحت رحمة الأمطار، فلماذا لا يُشاركهم الطقس اللعين؟ بيد أنه قال في مرح:

– أنا لا أبيع شيئًا.. إنما أنا مدعو.

– ومن الذي دعاك؟

– القائد طبعا.. ومد يده ليخرج الورقة التي وصلته من كراكوس.. وقدمها لهما.. لكنهما كانا يجهلان القراءة، ومع ذلك فقد كان مُجرد وجودها كافيًا للسماح له بالمرور في الطريق الحربي الموصل للمعسكر، ومضى فيه حتى قاربه.. وإذا بثلة من الجنود تعترضه وتوجه إليه نفس الأسئلة وتسمح له بالاستمرار في السير.

وكالعادة، كان المعسكر بمثابة مدينة كاملة، ثلاثون ألف رجل يأكلون ويشربون ويرقصون ويموتون.. وحيثما عسكرت الجيوش الرومانية، سارت الحضارة والمدنية في ركابها.. في السهول والجبال والوديان.. حتى قيل أن البرابرة كانوا يُولون الفرار فزعا، بمجرد أن تُشاهد رسلهم تلك المعسكرات ليلًا!

واعترضه أحد الضباط، وأمره بالترجل، الأمر الذي ارتاح له باتياتوس بعد طول الركوب.. وسأله من يكون وماذا يريد؟

– أنا لنتليوس باتياتوس من كابوا.

وغمغم الضابط الشاب وهو يردد اسم الرجل.. إنه يعرف كل شيء عنه.. ويدرك سبب استدعائه لمقابلة القائد.

وقال باتياتوس في سره: أجل.. أراك تكرهني يا ابن العاهرة.. ولكنك تحضر لزيارتي لتشتري مني العبيد المُقاتلين أنت وطبقتك، ومن أموالكم أنا أعيش، ومع ذلك فأنت لا تُحاول الاقتراب مني حتى لا تلوثك أنفاسي يا وغد!

وأومأ الضابط الشاب برأسه أخيرًا، وقال:

– نعم، إن القائد ينتظر وصولك.. أعلم هذا، وهو يطلب أن تُقابله فورًا.. سآخذك إليه.

– ولكني أحب أن أستريح.. وآكل شيئًا.

وابتسم الضابط قائلًا:

– سوف ينظر القائد في ذلك.. فهو ذكي كريم.

وأشار الضابط بإصبعه إلى أحد الجنود قائلًا:

– خذ هذا الجواد وضع له طعامًا وشرابًا في الحظيرة.

واستمر باتياتوس في احتجاجه:

– إني لم أتناول طعامًا مُنذ الصباح.. وما دام القائد قد انتظرني طويلًا.. فلا بأس أن ينتظر فترة أُخرى.

وضاقت عينا الضابط وقال في إصرار:

– هذا يتوقف على ما يراه القائد!

– ولكنك تطعم حصاني قبلي.

– هيا إلى الأمام.

– إنني لست جُنديًا من جنودك حتى أتلقى أوامرك.

– هيا.. إنك في داخل المُعسكرات، ولا تنس هذا.

ولم يجد باتياتوس بُدا من الصمت، ومُرافقة الضابط. إلى حيث مُخيم القائد وسط ميدان كبير.

وكان مقر القائد مُتسعًا عاليًا كأنه قُبة من الصخر، وحول كل ركن من أركانه حارس

طويل القامة مُمسكًا بيده سيفًا طويلًا من النوع التراسي وقد تقلد دروعه كاملة.. ووقف كالتمثال لا يطرف عينه، تحت مياه الأمطار التي كانت تسقط فوق خوذته النحاسية ثم تهبط على ثيابه وسلاحه إلى الأرض.. ورفع أحدهم الستار المُسدل على الباب بعد أن أدى التحية للضابط في نشاط كامل.

ونهض كراكوس واقفًا لدى رؤيته الضابط والرجل.. وانشرحت أسارير باتياتوس حينما شاهد القائد بنفسه يقبل على الترحيب به في سرور قائلًا:

– لنتليوس باتياتوس من كابوا؟ أهلًا بك!

وتصافح الرجلان وقال باتياتوس: إنني سعيد برؤيتك يا سيدي.

– لقد قدمت من بعيد وهذا كرم منك لتجشمك كل هذا العناء وأني لأراك مبتل الثياب، وجائعًا ومُتعبًا.

– أنا كل ذلك يا سيدي.. وأهمها إني أكاد أموت جوعًا.. ولقد رجوت هذا الشاب أن يطعمني ولم يجب طلبي.

– هذا لأننا نتبع نظامًا عسكريًا صارمًا والأوامر تُنفذ بكل دقة.. وأنا الذي أجيب كل رغباتك.. ستصلك ثياب جافة على الفور.. هل ترغب في الاستحمام؟

– يا سيدي.. قبل كل هذا، أُريد شيئًا أدسه في حلقي، وابتسم الضابط الشاب وغادر الخيمة.

أولًا..

– ٢ –

انكب باتياتوس على المائدة يلتهم دجاجة مشوية بعد أن شطرها نصفين ونظف عظامها من اللحم بكل دقة، وذلك بعد أن أتى على طبقين من السمك المقلي والبيض، وهو بين الحين والحين يميل إلى طاس كبيرة من العصيد يحملها بين يديه ثم يفرغها في

شدقيه، ثم يعرج على كئوس النبيذ يسلك بها بلعومه إذا اختنفق أو شرق، وهبطت بعض الفتات من الطعام، وسالت بعد قطرات الخمر على الثوب الجديد الذي ارتداه، بينما تلوث يداه الكبيرتان بدهن الدجاج و«زفارة» السمك.

وكان كراسوس يراقبه في شغف، وكان ككل طبقته من نبلاء الرومان يحتقر الطبقة التي انحدر منها هذا الرجل الذي يفتتح مدرسة للمصارعين، يشتريهم ويبيعهم ويُؤجرهم للملاعب. فمُنذ ععشرين عامًا وقد انتشرت هواية الاستمتاع بمناظر القتال الوحشية التي تدور بين آدميين بمختلف أنواع الأسلحة.. قتال حتى الموت يصفقون له سرورًا وابتهاجًا. بينما يثرى مثل هذا الرجل ويجمع الملايين على أشلاء جثث تلامذته النجب! فقد صار في كل قصر من قصور السراة والنبلاء ملعب كبير.. حيث يتقاتل مئات من الأزواج وما زال أصحاب المدارس يبتكرون وسائل جديدة للموت. وكلما كان الابتكار جديدًا رائعًا.. اشتدت حماسة المُتفرجين.

وكانت مدرسة لنتليوس بانياتوس في كابوا، من أشهر تلك المعاهد وأكبرها، فكما تشتهر بعض المُدن بماشيتها أو جيادها.. كانت جماعة المصارعين المُتخرجين في باتياتوس محل إقبال النبلاء وتقديرهم في إيطاليا كلها!

وقال كراسوس في نفسه:

– يا للهول! رغم ثراء الرجل وملايينه، فهو ما زال ينتمي لطبقة العامة.. يأكل كالحيوانات!

ولم يكن كراكوس جبانًا.. فعندما تآمر أعداؤه في مجلس الشيوخ عليه ورسموا خطة التخلص منه بالمُناداه به «بطلًا» لينقذ روما من أعدائها، في الوقت الذي انزوى قواد آخرون أفضل منه خشية الهزيمة والفشل، لم يتردد أو يعتذر.. بل وجد فيها فرصة ليُؤكد لأعدائه قبل أصدقائه أنه من الصلب الذي لا ينكسر أو ينثني.. وعكفت على قراءة كل ما يتعلق بالحروب والحملات التي شنتها روما، وكذلك عن غزوات الإغريق فيما مضى وطبيعة الأرض التي سيُحارب عليها. ولم يبق إلا أن يدرس شيئًا عن عدوه سبارتاكوس

ولذلك أرسل في طلب لنتليوس باتياتوس.. إذ عَلِمَ أن سبارتاكوس كان أحد المُصارعين الذين أنشأهم.

فما انتهى باتياتوس من الطعام حتى قال له كراكوس:

– أود أن تفهم أني لا أحمل لك في نفسي شرًا.. لأنك الشخص الذي «خلق» سبارتاكوس.. وما أرسلت في طلبك إلا لأنك تستطيع أن تُحدثني فيما لا يعرفه غيرك.

وتساءل باتياتوس: وما ذاك؟

– طبيعة عدوي.

وملأ الرجل اليدين كأسه، وفي اللحظة التي دخل الخيمة أحد الحراس ووضع مصباحين على المائدة.. فقد أقبل المساء ولمعت عينا الرجل تحت ضوء الشموع. وقال في خُبث:

– وما عساي أعرف عن طبيعة عدوك؟

ودوى البروجي نوبة المساء في خارج المضارب، وسمعت قعقعة سلاح النوبة الليلية وخطواتها الرتيبة الثقيلة تهز الأرض، وقال القائد في بُطء:

– ليس لي سوى عدو واحد.. هو سبارتاكوس.. وأنت تعرفه! ولا أحد في إيطاليا كلها يعرفه مثلك.. كانوا يحسبون في روما أنهم يُقاتلون عبيدًا فقط.. يكفي أن تنطلق الجيوش في طوابير ضخمة تحمل الأعلام وتدق الطبول، فإذا هم يولون الأدبار، ولكن خاب ظنهم، ولا داعي لأن أذكر لك كم مرة تحطمت جيوشنا على صخرة ذلك الشيطان سبارتاكوس.. وكم مرة مزق أشلاء فرقنا.

– فما زلنا نتوقع أمثال ذلك – ولكني أرى من واجبي أن أقول لك أن هذه هي المرة الأخيرة.. فإذا فشلنا سيكون فيها نهاية روما.. وأحسب أنك تفهم هذا مثلي.

وقهقه الرجل البدين عاليًا مُستغرقًا في الضحك وأمسك بطنه بيديه وهو يتقلب

فوق مقعده.

وسأله كراكوس في غيظ مكتوم:

– أتجد ذلك مُضحكًا؟

واستمر باتياتوس في نوبة ضحكة الطويل وهو يقول:

– الحقيقة دائمًا مُضحكة.. نهاية روما حقًا.. وبداية سبارتاكوس!

وتساءل كراموس في نفسه: هل جُن الرجل.. أم أفرط في الشراب؟ لكنه صمت في صبر، حتى انتهت النوبة.

وقال باتياتوس مُعتذرًا:

– من حقك أن تشنقني يا سيدي بدل أن تطعمني! معذرة وألف معذرة!

واستطرد كراسوس يقول في جد:

– لقد رأيت في منامي حلمًا غريبًا – عاودني أكثر من ليلة – كأنه كابوس ثقيل، رأيت نفسي وسط الميدان أُحارب وأنا مربوط العينين.. أمر فظيع جدًا لكنه معقول! فالأحلام ما هي إلا مشاكلنا في عالم الحقيقة تنعكس في عقلنا الباطن، فأنا أُحارب المجهول. وسبارتاكوس هو هذا المجهول.. فإذا حاربته دون أن أعرفه، فإنما أُحارب بعينين مربوطتين! وذلك لا يحدث دائمًا في كل الحروب، فأنا أعرف مثلًا لماذا تُحاربنا قبائل الفال، وكذلك الإسبان أو الأغريق.. يُحاربوننا لنفس الأسباب التي نريد أن نُسيطر نحن من أجلها على العالم.. ولكن.. سبارتاكوس.. ماذا يريد؟ لماذا يعني رفاقه من العبيد أنفسهم ولأي هدف؟ لماذا يجمع نفاية الآدميين من كل فج وصوب ويستخدمهم في تدمير أحسن وأقوى فرق في الدنيا.

إن الفرقة يلزم لها خمسة أعوام كاملة حتى تقف على أقدامها في التدريب والنظام وفنون القتال والدفاع، وحتى تصبح «فرقة بحق تغزو أقوى الجيوش.. خمسة أعوام ليعرف

الجُندي الروماني معنى الأمر والنظام ويفهمه، بعد تدريب شاق عشر ساعات كل يوم حتى تستطيع أن تأخذهم إلى قمة هاوية.. وتأمرهم بالقفز من فوقها إلى أعماق الجحيم.. فيقفزون دون تردد، مفتوحي الأعين.. ومع ذلك فقد أفلح هؤلاء العبيد في تدميرهم.. تدمير أقوى فرق روما».

لذلك دعوتك أن تحضر إلى – من كابوا – لتُحدثني عن سبارتاكوس.. حتى أزيل الرباط عن عيني.

وأومأ الرجل البدين برأسه، وامتلأ صدره زهوا، لقد دارت الأيام وأمسى رجلًا هامًا يستشيره القائد ويلتمس منه العون لإنقاذ روما.

واستطرد كراكوس يقول: أولًا.. حدثني عن «الإنسان» ما شكله وأوصافه! ومن أين أحضرته؟

– كان رقيقًا.. في مُنتهى الرقة، مُتواضعًا طيب الخُلق.. ومن مدينة تراسيا، حيث يوجد فيها كل شيء قوي وجيد حتى الثيران والخيول – يزعمون أنه عملاق، وهذا كذب، فهو متوسط الطول، في مثل قامتك، أسمر الشعر أجعده.. عيناه سمراوتان.. أنفه مكسورة ولولاها لاعتبرته حسن الوجه جميل التقاطيع!

– أحب أن أعرف ماضيه.. من أين اشتريته وماذا كان؟

وبسط باتياتوس ذراعيه وهو يقول مُبتسمًا:

– ومن هو المصارع؟ إنه ليس مجرد عبد.. أو على الأقل مُصارعو كابوا ليسوا مجرد عبيد، إنهم من جنس خاص. فإذا أردت أن تُقاتل ذئبًا، هل تشتري له كلبًا مُدللًا اعتاد على النوم بين أحضان سيدته؟ إذا أردت أن تُقاتل رجلًا.. فلا مناص من أن تبحث لهم عمن يصلح لقتلهم، رجال يمضغون الكراهية والحقد حتى الجنون، فهذا النوع لا يصلح إلا للمصارعة والقتل، ولا يصلح بتاتًا لخدمة البيوت أو الحقول.

وسأله كراكوس: ولماذا؟

– عندما ينهزم المُصارع في الميدان أقتله على الفور.. فما عاد يصلح لي أو لغيري أو لأي عمل آخر، فهو يُدمر كل ما يقع تحت بصره، ويفسد الباقين، إنه كجرثومة مرض وبيل لابُد من القضاء عليها.

– إذن لماذا يحترف هؤلاء الناس مهنة القتل؟

– آه، ذلك هو بيت القصيد! يعتقد الكثير من الناس أن المصارع مُصاب بمس من الجنون، فالرجل الذي يُصارع آخر حتى الموت لابُد أنه مجنون.. الشيطان الذي في عقله يثور حينما تحله من قيوده وتعطيه سلاحًا في يده، فينقلب حيوانًا مُتوحشًا، وينبغي أن تكون أكثر منه حتى تعيده إلى عقاله مرة أُخرى.. وذلك هي مُهمتي.

– وأين تعثر على أمثالهم؟

– هذا النوع من الناس الذي يُلائمني لا يوجد إلا في مكان واحد.. المناجم! فهي وحدها التي يعتبر الموت في فرق الجيش بالنسبة إليها جنة الفردوس، وحتى المشنقة تُعتبر بالنسبة للعمل في المناجم نعمة وبركة! وهنالك يجمع عملائي العدو الذي أطلبه لمدرستي.. ومن ثم أحضرنا سبارتاكوس فهو «قروي» أتعرف معنى هذه الكلمة التي أظنها مصرية؟

وهز كراكوس رأسه نفيًا.

– معناها أن الرجل قد انحدر من سُلالة العبيد.. أبًا وجدًا وجد جد.. كما أن الكلمة تعني أيضًا نوعًا من الوحوش التي لا تألف باقي جنسها، وتعيش في جنوب وادي النيل.

– إذن.. هل سبارتاكوس مصري؟

– إنه تراسي المولد، ولكني أحضرته من مصر، فأصحاب مناجم الذهب هُناك يشترون العبيد من أثينا ومن كل مكان في العالم.. وخاصة أهالي تراسيا.. ويدفعون فيهم ثمنًا غاليًا.

– وما سبب ارتفاع ثمن عبيد تراسيا.

– لأنهم كما تتناقل الأساطير، خير من يتحمل قسوة الحياة في باطن الأرض.

- إذن، حدثني عن سبارتاكوس.. وعن مصر!

شهدت الدنيا – قبل أن يرد اسم الجحيم في الكُتب السماوية وقبل المسيحية بعدة قرون – شهدت جهنم حمراء لها ألسنة من اللهب، على وجه الأرض رأتها طوائف من البشر رأي العين، بنارها التي شوت جلودهم، وشاهدوا فيها أهوالًا تشيب لها الولدان، وألوانًا من العذاب لا يتصوره عقل إنسان.

فهُناك في قيظ يوليو يتركز قرص الشمس جنوبي نهر النيل الخالد فيما بين مدينة طيبة والشلال الأول، وحيث تجري المياه السمراء عميقة هائلة بين وادٍ ضيق من الجبال والصخور الحمراء تتحرك دوامات من الرياح الساخنة الجافة المُحملة بالأتربة والرمال الناعمة تخنق الأنفاس وتلهب الوجوه، وتنزل كالسياط على الظهور، وكلما ابتعد الإنسان عن مجرى النهر مُتجهًا إلى الجنوب الشرقي، ازدادت الحرارة شدة، والهواء الخانق المُميت حدة، فتلك هي صحراء النوبة.. بلاد التيه حيث لا زرع ولا ضرع، ولا حيوان أو إنسان، بل تلال مُتحركة من الطباشير الأبيض الناعم السحيق يصهر الحديد وتسيخ فيها الأقدام حتى المفاصل فيتعذر السير.. كما يستحيل التنفس أو الرؤية أو التفكير!

ذلك هو الطريق إلى الجحيم.. وبغتة.. تبدو معالم أُخرى حيث تتغير طبيعة الأرض، وتظهر للعين مُنحدرات من الصخور السوداء.. سوداء كالفحم.. ولكن عند الاقتراب منها، يرى الإنسان فيها عروقًا من الرخام الأبيض البراق، ويا له من رخام «الالاباستر» الثمين الملائكي.. ولابُد أنه طريق السماء المرصوف بالذهب، فهو فعلًا وبكل تأكيد يوصل إلى مناجم الذهب!

ولقد توصل الفراعنة الأقدمون إلى ذلك الاكتشاف من الماضي البعيد، وكانت وسيلتهم هي آلات النحاس، أو البرونز يخدشون بها الأسطح حتى اختفى الذهب منها بمرور القرون، فأصبح ضروريًا تحطيم الرخام لاستخلاص الابريز الثمين، وكان قد ظهر استعمال الحديد والمطارق الضخمة التي تزن الثمانية عشر رطلًا.

وبدا ضروريًا البحث عن نوع جديد من البشر لاستخدامه في ذلك، فالأتربة والحرارة الشديدة والعمل الشاق من تحطيم الجبال وتتبع عروق الذهب حيثما كان، جعل من المستحيل استخدام الأجناس أو المصريين، كما أن الرقيق العادي – يتكلف كثيرًا ويموت سريعًا – ومن أجل ذلك أحضروا الأسرى من جنود الأعداء الأقوياء الذين عركتهم التجارب وكذلك الأطفال من «القرو» سلالة العبيد، حيث يلزم استخدام الأطفال لينفذوا من خلال الشقوق الرقيقة والممرات الضيقة بين الصخور.

وزالت دولة الفراعنة لعظمتها وقوتها، وتبعتها عهود الإغريق.. حتى امتدت سطوة روما إلى الشرق وحكمت مصر.. ومن ثم تولى تجار الرقيق الرومانيون عملية التوريد للمناجم، فقد تخصص الرومان في وسائل استعمال العبيد.

وهيا معي نذهب إلى المناجم، كما فعل سبارتاكوس.. مائة واثنان وعشرون من العبيد مغلولون من أعناقهم بالسلاسل يجرون أقدامهم المُقيدة في الأصفاد الثقيلة، يشقون طريقهم حُفاة الأقدام وسط الصحراء المُلتهبة، وتحت قيظ شمس يوليو التي جعلت سلاسل الأعناق ساخنة وكأنها حديد محمي، في طريقهم الطويل الشاق من الشلال الأول إلى المناجم، والرجل الثاني عشر من الأمام هو سبارتاكوس.. إنه يكاد يكون عاريًا كباقي رفاقه.. وبعد قليل سيتجرد تمامًا من ثوبه المُهلهل، وكانوا جميعًا بلا استثناء ذوي لحى طويلة، وشعور رءوسهم لم تعرف يد الحلاق مُنذ سنوات.

وماذا كان شكل ذلك الرجل سبارتاكوس؟ كان يبدو في الثالثة والعشرين من عمره رغم ما ينوء به كاهله من عذاب.. قد كسا جسمه من رأسه حتى اخمص قدميه ذلك التراب الطباشيري الأبيض الناعم من وعورة الطريق واختفى لون جلده الأسمر الذي حرقته الشمس، فحاكى لون عينيه الحارتين اللامعتين كأنهما جذوتان مُشتعلتان، وكان لونه الأسمر نعمة بالنسبة له، فقد ثبت أن بيضي البشرة من عبيد الشمال والأراضي المُنخفضة لا يتحملون حرارة الجو، ويموتون بسرعة بعد أن تشويهم الحرارة ويُقاسون أنواع الألم والعذاب.

أقصير هو أم طويل؟ من العسير أن تُحدد طوله في تلك اللحظة فهم لا يسيرون منصوبي القامة.. وأعناقهم إلى الأرض من ثقل الأغلال، وأجسامهم مُنحنية إلى الأمام وهم يجرون السلاسل الثقيلة وينتزعون أقدامهم الكليلة من الرمال الناعمة الساخنة تحت ضربات السياط التي تهوى الأبدان وتثخنها بالجراح.. ولا يُمكن أن يكون بدينا وهو يقتات على فتات من الخبز الأسود الجاف لا يُسمن ولا يغني من جوع.. وعنقه غليظة قوية العضلات لكنها مُثخنة بالجروح الدامية من أثر السلاسل الثقيلة الساخنة حولها.. والكتفان عريضان قد برزت عروقهما من عبء الإرهاق والمجهود الشاق.

أما وجهه العريض، فلولا أنفه المُهشمة المفُرطحة من ضربة هراوة غليظة.. لكان روعة في جمال التعبير، ومع ذلك فقد كان رقيق الملامح تتدفق من عينيه ينابيع العطف واللطف والحنان، وكان فمه واسعًا مُمتلئ الشفتين تُنبئان عن حساسية قوية وإذ تنفتحان لا في ابتسامة – وإنما في تجهم وغيظ مكتوم – تكشفان في صفين من الأسنان القوية البيضاء.. أما يداه.. فقد كانت بحق أجمل شيء فيه!

ذلك هو إذن – سبارتاكوس العبد.. ابن العبد الذي تسلسل من ظهور العبيد التراسيين، ولا يُمكن لإنسان أن يتنبأ بمصيره فهو كتاب مازلنا في أول صفحاته، أما ماضيه، فكما خُلِقَ من طين.. فقد عاش طوال سنواته الماضية في الطين! هذا هو سبارتاكوس الذي لا يعرف مُستقبله ولا يحب أن يتذكر شيئًا عن ماضيه، فقد وُلِدَ لكي يتعذب ويشقى ويعمل.. ولم يدر بخلده أبدًا.. أن في الدنيا بشرًا يعملون دون أن تلهب السياط ظهورهم.. وفي الواقع أن شيئًا ما.. لم يدر بخلده أو بخلد الآخرين.. فحينما ينطلق هؤلاء المُعذبون في الأرض إلى مكان العمل، لا يُفكرون إلا في ثلاثة أشياء: متى يأكلون، ومتى يشربون، ومتى ينامون! ومن العسير أن نتصور أن الوحوش أو الأنعام، لها أحلام في اليقظة أو النوم!

وسرعان ما يتغير المنظر، ويرفع سبارتاكوس رأسه ويرى المنحدرات السوداء تُشكل خطًا طويلًا حتى مدى البصر.. والرقيق يعرفون جيدًا معنى ذلك.. فهم وإن كانوا لا

يعرفون لون ماء البحر أو المُحيطات، أو يفهمون جمال الطبيعة عندما تنعكس الشمس شروقًا وغروبًا على قمم الجبال أو أعماق الوديان فهم يدركون عن تجربة معنى تلك العروف البراقة بين الحجارة السوداء.. إنهم شاهدوا ذلك في مناجم الفضة باسبانيا ومناجم الذهب في بلاد العرب، ومناجم الحديد في شمال إفريقيا، وجبال النحاس في القوقاز، وتلال القصدير في بلاد الغال.. ومع كل ذلك فكل ما شاهدوه ومارسوه لا يُقاس ولا يُمكن أن يُقاس بقسوة العمل في مناجم بلاد النوبة السوداء.

وتبدأ الشمس في الغروب إيذانًا بنهاية العمل في باطن الأرض وتخرج أفواج الرقيق من فوهات المناجم كالأشباح أو الموتى.. ويتساءل سبارتاكوس: ومن هم هؤلاء؟

ويجيبه رفيق له في الخلف:

– رحماك يا ربي!

ولكن الرب لن يرحمه في هذا المكان، بل إنه غير موجود هُنا! وعندئذ يدرك سبارتاكوس أن ما يراه ليس أنواعًا غريبة من حيوانات الصحراء، بل آدميون مثله، وأطفال لم يبلغوا الحلم، كُتِبَ عليهم الشقاء كما حدث له وهو صغير.. ولكن شتان بين حاله أو حال أي رقيق طفل.. وبين هؤلاء.. انظر إليهم، وستسري الرعدة في كل جسمك وأنت ترى الرعب مُجسمًا! إن قلب سبارتاكوس الذي تحجر بِمُضي سنوات الألم والشقاء.. ذاب كالجليد وهو ينظر إليهم وهو يزحفون على أربع كالأغنام أو الحملان الصغيرة.. أجسامهم لوثتها قذارة وأتربة المنجم ولم تعرف الماء مُنذ حضروا ولن تعرفه حتى يموتوا، يلهثون من فرط الإعياء والتعب والجوع والعطش وقد تلبدت شعورهم.. يسعلون فتنهد أجسامهم النحيلة كالأراجيح.. ويشعر سبارتاكوس برغبة في البكاء.. ولكن أين يجد الدموع وقد جفت من زمن طويل؟

وكانوا جميعًا عرايا.. وما قيمة الملابس لهم، هل سُتساعدهم على الحياة! ثم ما قيمة حياتهم بالنسبة لروما التي لا هم لها إلا مضاعفة أرباح حملة السندات في سوق الذهب والمعادن.. وربما تكافئ هؤلاء ثمن خرق يشترونها للكلاب القذرة.

وكان في عنق كل رقيق طوق من الحديد أو البرونز، وعندما يخرجون زاحفين على أربع من المنجم، ويظلون هكذا وقد كان لهم في ركبهم ومفاصل أيديهم كلاكل من الجلد السميك مثل الإبل، يصطادهم رئيس العمل واحدًا واحدًا فيشبك الأطواق ببعضها في سلسلة طويلة.. كل عشرين معًا.. ثم يقودهم إلى حظائرهم.. وفي الثابت يقينا أن مخلوقًا لم يُحاول الهرب من مناجم النوبة، لأن ذلك مستحيل، فالإنسان يتحول بعد عام واحد هنا إلى قطعة من الماشية.. والطوق والسلاسل ليست بقصد الحيلولة من الهرب بقدر ما هي رمز للمخلوق!

ويحاول سبارتاكوس أن يتحدث مع أحدهم.. ولكنهم صامتو كأنهم فقدوا القدرة على الكلام، ويحاول أن يطلب من أحدهم أن يضحك، ولكنهم نسوا الضحك أو حتى الابتسام، بل أن نظراتهم كانت شاردة كالمجانين لا يُبالون بما حولهم أو برفاقهم الجُدد أو بأي شيء في طريقهم.

وشعر سبارتاكوس بالرعب وهو يقول في نفسه:

– عما قليل سأكون مثلهم.

وينطلق رقيق تراسيا مع باقي العبيد إلى الحظيرة وهي كهف عميق في باطن الجبل، حفر من قرون طويلة لا يُمكن حصرها، مظلم كئيب، سيئ التهوية لا توجد له فتحات سوى المدخل، عفن الرائحة التي تنبعث من عرق العبيد وقذارتهم الخالدة. ومن المعلوم أن المنوط بهم الإشراف لا يدخلون ذلك الكهف أبدًا، وإذا ما نشبت مُشاجرة – ودائمًا تنتهي بموت أحدهم – فيكتفون بمنع الطعام والشراب من الخارج حتى يجوع الرقيق، فيخنعون ويهدأون، وبعد ذلك تلقى الجثة في الخارج.. ولكن قد يموت أحد الأطفال ولا يتبينه أحد، وقد تظل جثته أيامًا في ركن مُظلم حتى تجيف.. ذلك هو مكان المبيت!

ولعل أعجب ما تبينه سبارتاكوس.. أن هؤلاء الناس لا يُفكرون في الحرية أو الحياة الرغيدة من طعام جيد أو ثياب أو موسيقى أو نساء.. بل إن كل ما يُفكرون فيه هو أن يظلوا أحياء.. أحياء فحسب، ولم يكن تمسكهم بالحياة أمرًا منطقيًا في نظر سبارتاكوس

وهو يتعذبون في الجحيم.. لكنها الغريزة التي تولد مع كل حي.. وتراها في كل حيوان أيضًا.

ولا بُد له من أن يتشبث أيضًا بالحياة.. ولا يفقد الأمل في الخلاص.. وأعطوه نصيبه من الماء.. نصيبًا لم يحصل عليه من قبل خلال الأسابيع الماضية التي استغرقتها الرحلة عبر البحر وفي طول مجرى النيل، وفي عرض الصحراء، سيُحافظ عليه ويرشف قطرة قطرة حتى تتسرب إلى أنسجة جسمه، وسيأسف كثيرًا لو طردها جسمه بعد قليل. وتناول طعامه من خبز الشعير وعصيد القمح، وسعد كثيرًا بذلك، فطالما أكل أسوأ من ذلك وشبع ولا بُد أن يقبل عليه في احترام وحب.. فأولئك الذين احتقروا طعامهم وكرهوه، كان مصيرهم الموت جوعًا.

وانطلق يحمل طعامه وشرابه في ظلام الكهف يتحسس طريقه بأقدامه عوضًا عن عينيه.. وتُقابله موجة من الرائحة الكريهة تطير عقله وتخنق أنفاسه.. ولكن الرائحة لا تقتل، وهو ليس من الغباء حتى يفرغ ما في جوفه ويضيع نصيبه من الطعام القليل الذي دخل معدته ولو درهمًا واحدًا لحاجته إليه حتى يعيش.. لسوف يرحب بتلك الرائحة إذن.. ويستمر على الترحيب بها.

حتى يعتاد عليها، وفي جانب من الجدار الخشن يجد مكان فيجلس ويسند ظهره للجدار حيث يأكل ويشرب.. وحوله الرجال والأطفال يسمع أصوات أسنانهم تقضم الخبز وشفاههم تحتسي العصير والماء دون أن يراهم، ولا يترك سبارتاكوس وعاء العصير الخشبي حتى يلعقه وينظف كل جزء فيه.. فكل ذرة ضرورية له حتى يعيش.. ويسمع سبارتاكوس صوتًا يُناديه في الظلام:

– سبارتاكوس! أين أنت؟

فيجيب:

– أنا هُنا أيها التراسي.

ويُنادي التراسيون بعضهم بعضًا.. ويتجمعون معًا في مكان واحد يمدون أيديهم يتصافحون في الظلام وقد تصطدم يد سبارتاكوس بوجه أحدهم فيلمس دموعه تجري على وجنتيه فيغضب.. خسارة أن ننفق دموعنا ونُبددها هُنا.

ويهمس أحدهم يسأله:

– أين نحن يا سبارتاكوس.. أين نحن؟

– لن نضل طريقنا.. فنحن نعرف من أين قدمنا.

– ومن الذي سيذكرنا؟

كانوا يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم، فهو أبوهم الروحي، ولا عبرة بالسن، ومضى ينشد لهم بعض القصص الخفيفة وكأنهم أم تُهدهد أطفالها حتى يناموا.

ويتمدد سبارتاكوس لينام.. ويستعيد ذكريات طفولته وهو يرعى الأغنام في غابة أشجارها من البلوط.. ورجل كهل أشيب يجلس إلى جانبه يعلمه القراءة وفي يده عصا يجري بطرفها على الوحل فتكون حروفًا ويقول له:

– اقرأ وتعلم يا بُني، حتى نحمل نحن العبيد سلاحًا ينفعنا وقت الخلاص.. وبدون العلم والمعرفة.. لا نُفضل السائمة في شيء! فعندما خلق الله الدنيا لم يكن بين البشر سادة وعبيد.. ولسوف يأتي ذلك اليوم حتمًا! ويغمض سبارتاكوس عينيه.. ثم ينام.

ويستيقظ على صوت الطبول تدق خارج الكهف: فينهض كما يستيقظ الآخرون، ويحمل معه كوبه ووعاء طعامه الخشبي، فبدونهما لن يستطيع الحصول على زاد أو ماء، ويخرج مع مئات العبيد من الظلام إلى النور.

وكان الوقت فجرًا.. والصحراء في هذه الساعة رقيقة عطوفة بالبشر يطوف بها نسيم عليل.. والسماء تطرد النجوم ليحل محلها لون لازوردي جميل إيذانًا بانبلاج صبح يوم جديد ربما ينعش النفوس بالأمل.

ووقف سائقو العبيد جانبًا يقضمون الخبز ويمتصون الماء قبل العبيد بأربع ساعات على الأقل، وقد اتشحوا بعباءات من الصوف وحملوا في أيديهم الأسواط وعلقوا في أحزمتهم السيوف والخناجر الطويلة.. فمن أين قدم هؤلاء الناس؟ إنهم من شرار وحثالة الإسكندرية يتحملون قسوة الحياة وحرارة الجو نظير أجر سخي ونصيب طيب من محصول المنجم.. إنهم يحلمون بالنعيم والثراء والوعد بأن يصيروا مُواطنين رومانيين إذا ما قضوا خمسة أعوام في خدمة الشركة، ويعيشون للمستقبل حين يمتلك كل منهم قصرًا في روما وثلاث أو أربع جوار يتقلبن معه في الفراش، ويقمن بخدمته ليل ونهار.

إنهم مجموعة من غوغاء القوم يتحدثون خليطًا من الآرامية واليونانية، وهم ليسوا مصريين بل نسلًا مُختلطًا من جنود الشرق الذين أحضرهم الإغريق حينما كانوا يحكمون مصر قبل ذلك بقرنين ونصف قرن.. ولا خلق لهم ولا مبادئ ولا دين!

وقد طلبوا منه ورفاقه أن يتجرد تمامًا من ثوبه.. وعض على نواجذه غضبًا وهو يقول في نفسه:

– كل شيء يُمكن احتماله إلا العرى كالحيوانات.. ولكن.. نحن أقل شأنًا من الحيوان.. فعندما دحرونا وغزوا بلدي وأحرقوا دورنا وزراعتنا وقتلوا أولادنا وسبوا نساءنا، تركوا الحيوانات لشأنها.. وأخذونا نحن في الأغلال يكيلون لنا صنوف المهانة والذُل والعذاب.. وكان العبيد قد دخلوا المناجم، ولم يبق إلا الأرقاء الجُدد من تراسيا والذين قدموا في الليلة الماضية، ومنهم سبارتاكوس.. وقد دعاه أحد السائقين وقال له وهو يصعده ببصره كأنما يزنه ويقدر ثمنه:

– ما اسمك أيها التراسي؟

– إنهم يدعونني «الأب».

– ولكنك أصغر سنًا من أن تكون أبًا لهم!

– إنها تقاليد وعادات بلدي.

– إذن فاعلم أن التقاليد هنا تقضي بجلد الأب إذا أخطأ الابن.

– سأعلم ذلك.

– واسمعوا يا عبيد تراسيا جميعكم.. هذا مكان رديء، لكنه قد يصير أردأ كثيرًا. ونحن لا نطلب إلا العمل والطاعة العمياء طالما كنتم أحياء، أما إذا مات أحدكم فسيكون ذلك من حُسن حظه، هل فهمتم قولي؟

وصرفت لهم المعاول والمحارف والمطارق، وحدد مكان عملهم في قاع خندق كبير.. يحطمون الرخام العتيد، ويستخلصون منه عروق الذهب.

وارتفعت الشمس وزادت حرارتها.. دق بمعولك ومطرقتك، واحمل بجاروفك الحجارة في المقطف فوق كتفك واصعد.. اصعد.. فرغ حمولتك فوق الأكوام.. ثم اهبط.. دق مرة أُخرى واحمل واصعد واهبط.

وبالرغم من قوته وصلابة عضلاته.. فقد شعر بأنه وشيك على الانهيار وهو يطرق الصخر الأصم فيتردد صدى الطرقات في رأسه.. أربع ساعات طوال والعرق يتصبب من جسمه أنهارًا حتى جف حلقه وشعر بكل شعرة في جسده تصرخ طالبة الماء.

وإذ تتوسط الشمس كبد السماء لتصلي هؤلاء المُعذبين بنارها.. تبدأ الاجسام في الانهيار، وعندئذ تبدا السياط في تأدية عملها.. تصل إلى أي مكان في الجسم العاري دون تفرقة أو تمييز.

وحين ينتهي اليوم.. تسقط المطارق من الأيدي، ويُسمح لهم بالجلوس.. ويلمح سبارتاكوس فتى في الثانية عشرة يسقط بجواره وهو يبكي ويُناديه قائلًا:

– أبي.. أبي.. أهذا أنت؟

– نعم.. نعم، وقبله فوق جبينه.

– لا، ضمني إلى صدرك يا أبتاه. فإني أموت وأحب أن أهبك ما تبقى من روحي.

وضمه سبارتاكوس.. وشعر برغبة حادة في البكاء.. فقد مات الفتى!

– ٤ –

وقال كراسوس:

– وكيف هرب سبارتاكوس من ذلك الجحيم؟

فقهقه باتياتوس وأجاب:

– هرب؟ أما قلت لك أن الهرب من الجحيم لا يكون إلا بالموت؟ إن من يمضي عليه شهران فقط هُناك يفقد آدميته بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ.

– إذن.. لا بُد أنك اشتريته إذن.

ورفع باتياتوس جرة الخمرة وهزها فإذا هي فارغة، وقال:

– ما زالت قصتي طويلة.. هل تأمر لي بمزيد من الخمر؟

وضحك كراسوس، وسرعان ما أحضر له زجاجة كبيرة لم ينتظر باتياتوس حتى يرفع سدادتها، بل ضرب عنقها في حرف المائدة ثم بدأ يفرغها في جوفه.. ومسح شفتيه بظهر يده واستطرد قائلًا:

– كلانا قصاب يخوض في الدماء ويتجر في اللحوم.. أنت تبحث عن خيرة الجنود لتدفع بهم إلى «سلخانة» الموت لتضيف مجدًا جديدًا إلى أمجادك.. وأنا أبحث عن أقوى وأمهر المُصارعين ليموتوا في حلبة المُصارعة، ولأجمع من ورائهم المال.. أجل.. إن المصارع يقف أمام الجماهير والدماء تنزف من قلبه حتى يسقط صريعًا، بينما الأكف تلتهب بالتصفيق، والحناجر تنشق بالهتاف المدوي.. ومناديل النساء المُعطرة ترتفع في الهواء مسرورات لمنظر الموت والدماء! وفي سبيل ذلك أفقد دائمًا خيرة رجالي، وإذا لم أعثر على البديل سريعًا، تعرضت للتوقف والإفلاس.. بم تُقدر ثروتي الموزعة في الخارج يا سيدي؟ تهز رأسك لأنك لا تعرف.. إنها مليون قطعة ذهبية يا سيدي لا تنقص مليمًا! كلها في المواني البعيدة على

الساحل المتوسط والمحيط كرصيد دائم لما اشتريه من البضاعة.. وكما قلت لك بضاعتي من نوع خاص مُمتاز.. وهوايتي البحث عنها في المناجم، ومنها مناجم النوبة التي أخصها بزيارتي مرة كل عامين.. أُفتش فيها عن كل يائس مُستميت من ذوي الأجسام القوية وممن لا يخافون ضرب السياط.. مثل هذا الرجل يُعد خطرًا على العمل والعُمال لأنه ينشر فيهم روح التمرد والمُقاومة، السياط لا تُؤلمه، والموت لا يرهبه.

وهم غالبًا يقتلون مثل هذا الشخص ويلقون بجثته أمام الرقيق حتى تتعفن درسًا وعبرة لرفاقه من المتمردين.. ويسرهم التخلص منه لو عرضت شراءه بأقل ثمن معقول.. مثل هؤلاء الرجال خامة طيبة ليكونوا مُصارعين في مدرستي بكابوا!

– إذن.. بهذه الوسيلة ابتعت سبارتاكوس؟

– أجل.. كانا اثنين، سبارتاكوس وتراسي آخر يُدعى جاتيكوس، وأهل تراسيا جميعًا يجيدون القتال بالخناجر وقد دربتهما على ذلك بأحدث الطُرق عامًا كاملًا.. وفي العام الذي يليه على استعمال السيف، ثم عامًا ثالثًا في الحراب من كل نوع.. إني أهتم بتغذيتهم ووفاء كل مطالبهم من خمر ونساء.. وهذا يُكلفني كثيرًا.

وهتف كراسوس مُتعجبًا:

– نساء أيضًا؟

– نعم.. بكل تأكيد، فالمُصارع ليس فلاحًا نُكلفه بجر المحراث.

كلا: إن أردت استخلاص نتيجة طيبة منه، فيجب أن نوفر له امرأة فراش، ولي دار خاصة بالنساء ولا اشتري إلا الجواري القويات صحيحات الأجسام الجميلات أيضًا.. والعذارى على وجه خاص.

– آه.. إذن حقيقة ما سمعت عن هذه المرأة زوجة سبارتاكوس؟

– أجل.. اسمها فارينا.

– حدثني عنها!

– عندما اشتريتها لم تكن قد جاوزت عامها التاسعة عشرة.. عاهرة ألمانية ذات وجه جميل وشعر أصفر وعينين زرقاوين.. حاولت أن أغتصبها كأي جارية.. لكنها، عليها اللعنة، كادت تفتك بي، فوهبتها لسبارتاكوس.. وكنت أقصد التسلية، فما كان سبارتاكوس ممن يحبون النساء، ولا هي ممن يميل للرجال.. ولم يعد في استطاعته أن يستمر في حديثه.. فقد تجرع من الخمر ما يصرع عشرة رجال..

وسقطت رأسه أمامه.. وراح في سبات عميق.

القسم الثالث

– ١ –

لم تكن رحلة كابوس كراسوس – والتي تخلف فيها مع هيلينا وكلوديا في فيلا سالاريا – هي أول رحلاته إلى كابوا، أو المرة الأولى التي سمع فيها عن لنتلبوس باتياتوس، صاحب أكبر معهد لتدريب المُصارعين في إيطاليا كلها، فهو يذكر أنه قام برحلة مُماثلة مُنذ أربعة أعوام لتلك المدينة وقبل أن تنشب حروف السرفيل.. بل قيل أن يسمع إنسان باسم سبارتاكوس مقترنًا بالعبيد.. وكانت تلك الرحلة بناء على دعوة تلقاها من صديقة براكوس ليقضيا وقتًا طيبًا مليئًا بالمفاجآت.

***

ففي يوم بديع من أيام الربيع، كان لنتليوس باتياتوس جالسًا في غرفة مكتبه الأنيق يطارد النوم عن عينيه بعد إفطار تقيل تكور في معدته وسبب له خمولًا شديدًا، حين أقبل عليه خادمه اليوناني يعلن وصول شابين رومانيين يرغبان في التفاهم معه بشأن مُشاهدة مصارعة ثنائية.

وكان هذا النوع من المصارعة قد انتشر انتشار النار في الهشيم في مُدن إيطاليا كلها، وأصبح الهواية المُفضلة لنبلاء وأثرياء الرومان خاصة، ولم يكن يحرمه القانون باعتباره نوعًا من الرياضة، فكان في كل قرية ومدينة ملعب أو أكثر يزدحم بالجمهور المُتحمس لرؤية القتال العنيف الدامي، ونتيجة لذلك انفتح باب جديد للرزق لطائفة من الرياضيين والجنود المُتقاعدين فمضوا يشترون أقوياء الأجسام من الأرقاء يدربونهم ويُؤجرونهم لتلك الملاعب الخاصة والعامة بأجور ازدادت ارتفاعًا كلما تضاعف عدد الملاعب وتزايد جنون الرومانيين بمشاهدة تلك الرياضة المجيبة، أما السياسيون ورجال الحُكم في ذلك الوقت

فقد وجدوا في تلك المعارك المحلية تنفسًا للشعب ووسيلة لشغل أذهانهم وصرفهم عن التفكير في الهزائم التي بدأت تمني بها الجيوش في آسيا وأفريقيا.

وهكذا بدأ لنتليوس باتياتوس حياته بفناء بسيط استأجره في كابوا وبزوج من المُصارعين، أما الآن وبعد خمس سنوات فقد اتسعت دائرة أعماله، وأصبح يمتلك قصرًا منيفًا وأكبر ملعب في إيطاليا يضم مئات الأزواج من المُقاتلين أقام لهم دارًا خاصة لها باب حديدي ينفتح على ميدان الملعب الواسع، وفي نفس الوقت كانت له اتصالات طيبة بالجيش فزوده بعدد من الجنود بكامل أسلحتهم لحراسة الملعب يضفون عليه مهابة وجلالًا.. وكانت مطابخه تعمل ليل نهار لتطعم بالإضافة إلى مئات المصارعين ونسائهم، عشرات المُدربين ومئات من الجواري والخدم الأرقاء، أي ما ينوف على أربعمائة إنسان يشغلون باله وتفكيره صباح مساء.

وأمر باتياتوس بإدخال الزائرين.. ونهض في أدب جم يستقبلهما وأشار لهما بالجلوس.

***

وأدرك بخبرته وذكائه أن الشابين – رغم صغر سنهما – على جانب كبير من الثراء ومن أُسر نبيلة، فأصغرهما كايوس كراسوس يُحاكي الفتيات في جماله ورقته، أما الثاني فقوى الشخصية تبدو من عينيه الزرقاوين إمارات البرود والقسوة.. وكان هو الذي يتولى الحديث بينما أنصت كايوس.

– أهلًا بكما أيها النبيلين.. أنا لنتليوس باتياتوس!

وقدم براكوس نفسه وصديقه ثم دخل في الموضوع مُباشرة:

– نُريد أن نشهد عرضًا خاصًا لِمُبارزة ثنائية بين زوجين من المُصارعين.

– عرضًا خاصًا لكما فقط؟

– نحن أربعة.

ومد باتياتوس يديه فوق المكتب يتأمل خواتمه الذهبية ذات اللآلئ النفيسة.

– هذا يُمكن تدبيره.

فقال براكوس في هدوء:

– حتى الموت!

– ماذا؟

– لقد سمعت ما قلت.. أريد زوجين من مُصارعي تراسيا.. يتقاتلون حتى الموت!

– ولكن لماذا؟ دائمًا تطلبون أيها الشباب مُشاهدة قتال الموت وتحضرون خصيصًا من روما من أجل ذلك؟ بوسعي أن أريكم عرضًا مُثيرًا من فنون المُصارعة وقدرًا كبيرًا من الدماء لن تحلموا بِمُشاهدته في أي مكان آخر.. ولكن لماذا حتى الموت؟

– لأن تلك هي رغبتنا.

– هذه ليست إجابة مُقنعة عن سؤالي.. انظر.. انظر.. إنك تطلب تراسيين، ولدي أربع وأُشجع مصارعي تراسيا، ولكنك لن تتمتع بمُشاهدة رياضة حقة وقتال يحوز إعجابك بالخناجر: إذا طلبت أن يقتتلا حتى الموت.. وتكون النتيجة أنك تدفع نقودك هباء.. في استطاعتي أن أُرتب لك رؤية ما لن تراه في حياتك من الرياضة النظيفة من مطلع النهار حتى آخره.. أما إذا كنت قد قدمت إلى هُنا لإشباع رغبة خاصة في نفسك، فأنا كصاحب مدرسة لا أُجازف بسمعتي ولست قصابًا.

وابتسم براكوس وقال في إصرار:

– أنا أرغب في مُشاهدة فنك العالي.. ومع ذلك أريده حتى الموت.

– هذه مُتناقضات يا سيدي.

وابتسم براكوس ثم قال في هدوء:

– بالنسبة لطريقة تفكيرك أنت.. إنك توفر مصارعيك وتعرض علي توفير نقودي، ولكني اعتدت أن أدفع مالي ثمنًا لشيء اشتريه.. وأنا أشتري منك أربعة من مصارعيك قتلى أمام بصري.. فإذا لم ترغب في إتمام الصفقة فلسوف نبحث عن مكان آخر.

– ومن الذي قال أني لا أرغب في عقد صفقة معك يا سيدي؟

ولكني أعرض عليك أن تتمتع بيوم جميل عندي تُشاهد ورفاقك أبرع أنواع المُصارعة من الصباح إلى المساء.. بثمانية آلاف دينار شاملة للطعام والشراب!

– أنت تفهم ما أُريد، ولا أحب أن تضيع وقتنا في هذا الهراء.

– حسنًا.. سيُكلفك ذلك خمسة وعشرين ألفًا من الدنانير.

ودهش كابوس لفداحة الثمن، بيد أن براكوس وافق في الحال واستطرد قائلًا:

– وهو كذلك، على أن يكون القتال وهم عرايا.

– عرايا!

– لقد سمعتني أيها المدرب.

– حسنًا.. حسنًا.

– كما أُحذرك من أن تُحاول خداعي، فربما أصاب كل منهم زميله إصابة دامية ويقعان على الأرض مُتظاهرين بالموت.. ولذلك أُريد أن يقوم أحد مُعاونيك بذبحهم جميعًا أمامي.. وعليك أن تجعلهم يفهمون ذلك جليًا.

وأومأ باتياتوس برأسه:

– سأعطيك عشرة آلاف دينار حالًا.. أما الباقي فعند انتهاء العرض.. وسنحضر لذلك صباح باكر.. فهل أنت مُستعد؟

– أجل.. هل تحب أن تُشاهدهم الآن؟

ونظر براكوس إلى كايوس قائلًا:

– أتحب أن تلقي نظرة يا بُني؟

وابتسم كايوس في خجل وأطرق.

***

وكان الفناء بمثابة قفص كبير طوله خمسون قدمًا وعرضه أربعون مغلق بالقضبان الحديدة من كل جوانبه، فيما عدا الجهة التي تتصل بالسراديب التي يقيم فيها المُصارعون.

وكان منهم عدد يُناهز المائة يقومون بالتمرينات اليومية تحت إشراف ستة من المُعلمين الذين هم كالمعتاد من الجنود المُرتزقة المُتقاعدين، يجوسون خلال المُتصارعين حاملين في أيديهم سيوفهم الطويلة وفي اليد الأُخرى تروس مُستديرة كبيرة من النحاس، أما المُتصارعون فكانوا مُتجردين من ثيابهم إلا من سراويل قصيرة تخفي عوراتهم، حليقي اللحى والشوارب، شعرهم مقصوص تمامًا.. بعضهم يحمل عصيا طويلة وبعضهم يحمل هراوات غليظة، والباقون إما بالسيوف أو الخناجر.. وكانوا جميعًا طوال القامة أقوياء الجسم تبدو عضلاتهم الملفوفة في أجسامهم نافرة قوية وهم يتحركون في خفة وبراعة النمور.. وكانوا على ثلاثة أنواع.. فالتراسيون يحملون خناجرهم القصيرة المُقوسة والتي اشتهر عنهم جودة استعمالها ويطلقون عليها اسم «سيكا».

والإفريقيون قد امتازوا بالقامة الفارعة والأجسام الضخمة، ومعظمهم من الأحباش يتصارعون بحراب طويلة رءوسها من ثلاثة أفرع من الصلب كقرون الغزلان، أما النوع الثالث فهم خليط من الألمان والفاليين يتصارعون إما بالسيوف فقط أو بالسيوف والدروع.

وقال براكوس:

– ليس مثل التراسيين في المصارعة.. هات لي زنجيًا مع أحد أبناء تراسيا!

فأجابه باتياتوس:

– لن تكون المُبارزة مُتكافئة، فالتراسي لا يحمل إلا خنجره.

فقال براكوس:

– ولكني أُريد ذلك.

فهز باتياتوس كتفيه وأشار إلى أحد المُدربين الذي حضر، ولما فهم رغبة براكوس قال:

– إن التراسي لا يحمل سوى خنجره المُقوس، ومتى اشتبك الخنجر في خيوط الشبكة الكبيرة التي يحملها الإفريقي كان في ذلك نهاية حياة التراسي.. فليس ثمة أي تكافؤ في المُبارزة.

فهتف به باتياتوس:

– نفذ الأمر.

وعاد المُدرب يقول:

– ولماذا لا نقدم بدله أحد الألمان؟

فأجاب براكوس:

– ولكني دفعت ثمن تراسي! ولا تُناقشني.

وعندئذ قال باتياتوس:

– لا فائدة من الجدل.. نفذ الأمر.

وأمسك المدرب بصفارته المُعلقة بخيط حول رقبته وأطلق منها ثلاث صفرات قصيرة حادة.. فتوقف المصارعون عن اللعب.. في استراحة قصيرة.

وقال المدرب:

– من تريد؟

فأجابه باتياتوس:

– درابا!

فصاح المُدرب:

– درابا!

واستدار أحد الزنوج ثم تقدم يحمل رمحه الطويل وشبكته.. عملاق من الأبنوس جسمه يلمع بالعرق.

– دافيد!

وصاح المدرب:

– دافيد!

وتقدم اليهودي التراسي.. نحيل الجسم معقوف الأنف، عيناه خضراوان لامعتان.. مُمسك بين أصابعه خنجره المُقدس.. ومضى يُحملق في الضيوف دون أن يراهم.

وقال براكوس مُخاطبًا كايوس:

– يهودي.. هل رأيت في حياتك يهوديًا؟

– سيكون المنظر مثيرًا.. فاليهود يجيدون استعمال السيكا وهو السلاح الوحيد الذي يؤمنون بفائدته.

– بوليموس!

وصاح المدرب:

– بوليموس

وكان تراسيا حديث السن جميل الوجه.

– سبارتاكوس!

وانضم إلى رفاقه الثلاثة.

ووقف المُصارعون الأربعة أمام الضيفين وباتياتوس لا يفصلهم سوى قضبان القفص الحديدية القوية وتأملهم كايوس.. رجال في منتهى اللياقة البدنية، مُحاربون أشداء، يُقاتلون في وحشية لا تُقاس بها وحشية الحيوانات الكاسرة، ولا يُقاتلون كما يُقاتل الجنود أعداءهم في الحرب.. بل قتالهم من نوع آخر مُختلف تمامًا.

وقال باتياتوس مُخاطبًا براكوس:

– ماذا ترى فيهم؟

فأجابه براكوس في برود:

– ما عدا ذلك الرجل ذو الأنف المُهشم.. لا يبدو على شكله، إنه يجيد حرفته.

– قد تخدعك المظاهر.. هذا سبارتاكوس قوي وسريع الحركة.. لقد اخترته لك.. إنه يتحرك في سرعة البرق.

– ومن غريمه؟

– الرجل الزنجي.

فقال براكوس:

– حسنًا.. أرجو أن يكون مُناسبًا للثمن الذي دفعته!

تلك هي المُناسبة التي شاهد فيها كايوس سبارتاكوس أول مرة.. وبالرغم من أنه كان قد نسى أسماء المُصارعين الأربعة، فإنه ما زال يذكر قرص الشمس المُلتهب ورائحة العرق الذي كان يجري على أجسامهم العارية!

- ٢ -

هذه هي «فارينا» التي ظلت مفتوحة العينين طوال الليل لم يغمض لها جفن، بينما كان سبارتاكوس بجوارها ينعم بنوم عميق، تتردد أنفاسه.. في صدره العريض هادئة طويلة.. كأمواج البحر في أشد حالات رضاه وهدوئه.

ولكن كيف يستطيع مثل هذا الرجل أن ينعم بالنوم وهو يعلم ما ينتظره في اليقظة؟ كيف يزور الكرى عينيه وهو دائمًا على شفا الموت؟

ومدت فارينا يديها تتحسس جلده ولحمه وعضلاته المُتراخية بأصابعها الرقيقة الحانية:

«نم.. نم.. نم يا حبيبي.. يا أعز شيء عندي حتى تستعيد قواك.. نم.. يا ملاكيّ».

والتصقت به وضمته إلى صدرها حتى اختلطت أنفاسها الحارة بأنفاسه الهادئة.. وغطى شعرها الذهبي الجميل وجهه وعنقه.. كأنها تحميهما من سكين الجلاد! ومضت تبكي في ظلام الليل.. وهي التي لم ير مخلوق دموعها في وضح النهار.

كانت تنام معه على قطعة رفيعة من الحصير على أرض الغرفة الحجرية التي خصصت لهما في السراديب العفنة، والتي لا يزيد عرضها عن خمسة أقدام وطولها سبعة.. والتي لا تحتوي على غير تلك الحصير ووعاء من الخشب.. ذلك هو بيتهما.. بل قصر أحلامهما. وتذكرت ما قاله لها باتياتوس وما كان يحب أن يُكرره دائمًا:

«أنا لا أهب النساء، بل أعيرهن فقط.. أعيرهن للمصارعين، فالمصارع ليس عبدًا كباقي العبيد، بل إنسان مُكتمل القوة موفور الحياة، وإذا لم يكن كذلك فهو لن يُساوي عشرة دنانير.. والإنسان يحتاج لامرأة، ولذلك فأنا أشتري «المعاصيات» بأقل ثمن مُمكن، وطالما تعسر علي ترويضهن، فأنا أنيط ذلك لرجالي».

وكان باتياتوس يشتهيها بكل جارحة في جسمه، فقد كانت على خلاف رفيقاتها، طويلة القامة رشيقة الجسم رائعة الجمال كبنات جنسها.. وكانت صغيرة وعذراء..

وباتياتوس يحب هذا النوع لدرجة الجنون، ولكنه لعن اليوم الذي اشتراها فيه حينما خيبت آماله فيها.. فقد تبين أنها قطة مُتوحشة تجيد الركل والعض وملأت وجهه وعنقه خدوشًا عميقة بأظافرها، ولم تُمكنه أبدًا من نفسها وقاومته مُقاومة عنيفة فتخلى عنها بعد أن ضربها ضربًا مُبرحًا!

وكان من حقه – في ثورة غضبه – أن يقتلها لولا تذكره الخمسمائة دينار التي دفعها ثمنًا لها.. وهو مبلغ ليس بالقليل! ومن أجل ذلك قرر أن «يعيرها» لأحد المصارعين «ليروضها» له! ولقد اختار لها ذلك التراسي الصامت المُسمى «سبارتاكوس» والذي عُرِفَ عنه كراهيته للنساء.. فما بالك وسيجد نفسه مُضطرًا لأن يُعاشر من يكرهه في غُرفة ضيقة صباح مساء؟

وحين أعطاها لسبارتاكوس قال له:

– هذه رفيقة لفراشك.. أنت حر تصنع بها ما تشاء، أرغمها على طاعتك دون أن تُحدث بها تشويها يُقلل من ثمنها.

ولم تكن فارينا في تلك اللحظة – تبدو جميلة الملامح، فقد كان وجهها مُتورمًا مليئًا بالكدمات، وثمة جرحان داميان بطول وجنتيها.

واستطرد باتيانوس يقول: انظر ما أعطيتك!

ومد يده فمزق ثوبها من العنق حتى الذيل.. فوقفت فارينا عارية أمام سبارتاكوس.. كما ولدتها أمها!

ولقد أحبها سبارتاكوس.. في تلك اللحظة.

لم يحبها لأنها مُتجردة من ثيابها.. بل لأنها وهي على تلك الحال.. بدت أمام ناظريه وكأنها في كامل ملابسها.. فلم تحاول أن تستر نفسها بذراعيها، بل وقفت شامخة الأنف مرفوعة الرأس في كبرياء وتحدٍ تنظر في النافذة الوحيدة بأعلى الجدار حيث الهواء النقي.. والنار مُشتعلة في عينيها كأنما تقول في نفسها «عارية أو كاسية.. لا يهمني ما دمت

سأُقاومك حتى الموت!».

وأمضت ليلتها جالسة القرفصاء في الركن البعيد من الغرفة، ولم يقربها سبارتاكوس، ولم يُحاول أن يشعرها بوجوده سوى أن قال لها: هل تتكلمين اللاتينية يا فتاة؟ (ولم تجب) سأخاطبك باللاتينية لأني لا أعرف الألمانية فأقول لك: إن الليل هُنا شديد البرودة وأطلب منكِ أن تنامي فوق حصيري (ومع ذلك لم تجب) فألقى الحصير ناحيتها.

وعندما فتح عينيه في الصباح كان الحصير لا يزال في مكانه وسط الحجرة.. وكلاهما ينام على البلاط.

وبالنسبة لفارينا.. كان سبارتاكوس أول رجل يمنحها العطف والحنان بدون أجر أو مُقابل.. وهي ما تزال تذكره هذه الليلة الأولى.. وهي تضمه إلى صدرها كما تضم الأُم وليدها.. ودموعها تسيل وتنهمر فتبلل فراشهما المُشترك.

– ٣ –

كان ذلك الصباح.. هو المُحدد للعرض الخاص، وسرى النبأ سريعًا في نحو مائتي مُصارع بأن أربعة منهم سوف يقتتلون حتى الموت لتسلية بعض الضيوف القادمين من روما.. وعرفوا أن الاختيار قد وقع على أربعة منهم.. يهودي وزنجي واثنين من أبناء تراسيا، ولما كان معروفًا إجادة الزنوج ومهارتهم في استخدام الشوكة والشباك، فالنتيجة معلومة سلفًا.

ومن العجيب أن كثيرًا من أصحاب الملاعب كانوا يرفضوا إجراء مثل هذه المُصارعة غير المُتكافئة.. فمن العبث أن تنفق أعوامًا في تعليم كلب لك وتدريبه، ثم تدفعه – في غمضة عين – أمام أسد ليلتهمه! ولكن باتياتوس كان مُستعدًا أن يبيع أُمه نظير قروش معدودات!

واستيقظ الزنجي درايا من نومه وقال: مرحبا بك يا صباح الموت!

واستلقى فوق حصيره ومضى يُفكر.. ويتعجب من فلسفة الوجود.. لماذا يخشى كل

حي أن يموت؟ لماذا يتثبت الإنسان بالحياة حتى لو كان بعيدًا عن بيته وأُسرته وكل من يحب؟ مهدور الحرية والكرامة يلقى أسوأ أنواع المُعاملة القاسية.. كأنه حيوان.. يدفعونه للموت من أجل تسلية الطُغاة؟ إنه وهو زعيم قبيلته المُعزز المهيب المُكرم من بني جنسه، والذي كان قبل أسره يحيا حياة كلها سلام واطمئنان ومحبة بين زوجته وأولاده وعشيرته يقف بعد لحظات وفي يمناه عصا في نهايتها شوكة ذات ثلاثة أفرع، وفي يساره شبكة عريضة طويلة، يُحاول أن يصرع زميلًا له في البؤس.. أو يصرعه هذا الزميل إن كان حسن الحظ، وسواء هذا أو ذاك.. فإن المُنتصر والمهزوم قد تحددت تلك اللحظة لذبيحهما.. كل هذا ليجلب البهجة والسرور لأناس شرهين للدماء!

– ٤ –

انطلقوا جميعًا إلى الحمام.. وسار أربعتهم جنبًا إلى جنب صامتين.. وما كانت بهم حاجة للحديث الذي ربما زاد الأمر سوءًا ما داموا لن يفترقوا حتى دخولهم الحلبة.

وكان البخار يتصاعد من المياه الساخنة في الحوض الكبير.. فألقوا بأنفسهم فيه دون تفكير ككل شيء يقدمون عليه.. بلا إرادة أو تفكير!

وكانت قاعة الحمام مُظلمة، وطول الحوض أربعون قدمًا وعمقه عشرون لا يضيئه سوى شُعاع الفجر الباهت ينفذ من فتحة صغيرة في السقف لم لكن كافيًا لتبديد الظلمة الحالكة.. مياه سوداء ساخنة فوقها ضباب كثيف من البخار المُتصاعدة وأجسام تسبح فيها كالتماسيح دون كلام أو سلام.

وكان سبارتاكوس يعشق الماء الساخن حينما يستلقى فيه ويتسرب في مسام جسمه ويبعث الدماء حارة في عروقه، مُجددًا لنشاطه وتفكيره.. وحينما يعود بذاكرته إلى أيامه الخالية في الرق.. حشرة مهملة يستنفد كل طاقته في فلاحة أرض سيده حتى تنبت الشعير والقمح.. كانت تعلو الأوساخ جسمه يضربونه ويجلدونه ويركلونه ويتركونه دون طعام أو شراب، أما الآن. فإن سيده الجديد يهتم بنظافته وطعامه ومزاجه، لأنه في نظره

أثمن من الذهب الذي كان يشقى لاستخراجه من المنجم.

وشعر سبارتاكوس في تلك اللحظة فقط – بموجة عاتية من الحقد والغضب تكتسح عقله وقلبه وفكره.. وهو الذي لم يكن لديه وقت ليحب أو يكره أو حتى لحظة يطلق فيها العنان لتفكيره!

ولقد تركزت كراهيته في «لنتليوس باتياتوس» أولًا.. ثم في روما وكل ما هو روماني ثانيًا.. باتياتوس القذر الذي يثرى على حساب أرواحهم.. وذلك الشعب الذي أنجبته روما.. الذي يهتف ويصفق ويصرخ طالبًا مزيدًا من دماء الرقيق كأنهم ليسوا بشرًا مثلهم!

لقد نزل حلبة المصارعة ثماني مرات في كابوا والشعب يهتف له مُحرضًا مُشجعًا طالبًا منه الإجهاز على غريمه المهزوم، شعب مجنون لا يستحق المجد أو الخلود.. وأُمة غرقت في التهتك والمجون والإباحية المُطلقة بلا حدود!

وكان سعيد الحظ في المرات الثمانية، وفي أربع مرات غيرها في عروض خاصة مثل التي سيقوم بها اليوم ولم يصب بفقد طرف من أطرافه أو قلع عين أو قطع أنف أو أذن أو حتى طرف خنجر يقطع جلده، فكان يخرج من كل تلك المحن سليمًا معافى، ولا يرجع ذلك إلى خبرة أو مهارة .. خبرة في ذلك المجزر؟ كلا، وإنما هي غريزة حب البقاء تجعله يقفز كالهرة متفاديًا الضربات القاتلة .. ولكن في هدوء تام وأعصاب قوية .. فما أن يفقد المصارع هدوءه حتى يموت! الخوف والغضب عدوان لدودان له، فلا ينبغي أن يطلق لهما العنان .. أما فارينيا فقد أبعدها عن تفكيره .. إذا ما قدر له أن يعيش .. فلسوف يراها وتراه .. ولكنه الآن لا هو بالميت ولا بالحي!

وقدموا له طعامًا خفيفًا كأسًا من النبيذ وشرائح قليلة من اللحم، فليس من الحكمة أن تملأ بطن المصارع، حتى يستمر في الكر والفر أطول وقت ممكن ويعطي عرضًا يستمتع به الرومان الأفاضل .. وعلى أية حال لم يكن سبارتاكوس جائعًا .. وكذلك الثلاثة الآخرون، اكتفوا بتذوق قطرات من النبيذ كما لو كانت نفوسهم تعاف كل شيء قبل أن يلاقوا حتفهم بعد قليل وكان كل منهم ينظر نحو الآخر ويتأمله في صمت .. كذلك لم

يفكر باقي زملائهم في أن يقطعوا عليهم سكونهم .. فتلك كانت تحيتهم نحو زملائهم الذين يتناولون إفطارهم الأخير..

وكانوا يعلمون جميعًا أن سبارتاكوس سوف ينازل الزنجي العملاق .. خنجر أمام الشوكة والشباك .. وأن مصير المنتصر والمهزوم قد تحدد .. فانفطرت قلوبهم من أجل رفاقهم في الأسر والرق .. وخاصة سبارتاكوس . وكانت غلطة منه أن يجعل الجميع يحبونه ويحترمونه بكل قلوبهم وأرواحهم وعقولهم الساذجة .. فثمة غيره كثيرون من أبناء تراسيًا، يفضلونه في الجسم والهيئة .. لكنهم وجدوا فيه أخًا كريمًا وأبًا رحيمًا، يكفكف دموعهم إذا ما اشتد عليهم الكرب وألم بنفوسهم الحزن والأسى، ويهرعون إليه لفض مشاكلهم فإذا ما أشار عليهم بأمر .. فهو الأمر المطاع . بل إن صوته الهادئ الحنون كان فصل الخطاء بالنسبة إليهم.

وكان باتياتوس يقول: «المصارعون حيوانات» ولكن سبارتاكوس رفض أن يكون حيوانًا، رفض أن يحني رأسه، بل ظلت هامته مرفوعة، وهو أمر غير عادي بين الرقيق، لم يرفع صوته أبدًا ولم يترك أعصابه تفلت منه، وكان يبدو دائمًا سعيدًا قرير العين والبال .. سعادته ميزته عن رفاقه .. فأصبح هطرًا في نظر باتياتوس .. وكان ذلك أهم سبب جعله مرشحًا للموت!

وانتهى طعام الإفطار .. وسمح للأربعة أن يسيروا معًا، دون أن يتحدث معهم أحد من زملائهم الباقين .. فالأوامر تقضي بعدم الاقتراب منهم أو حتى لمستهم أو التحدث معهم .. ولكن جانيكوس، خالف الأوامر وجرى نحو سبارتاكوس فضمه إلى صدره ثم قبله في فمه .. وكان ذلك تصرفًا عجيبًا، ثمنه ثلاثون جلدة فوق ظهر جانيكوس تلقاها باسمًا راضيًا .. وكان عدد كبير من المصارعين يفهمون الدافع القوي الذي جعل جانيكوس يقدم على ذلك.

— ٥ —

ظل لنتليوس باتياتوس لعدة سنوات تلت، يتذكر ذلك الصباح .. ويحاول أن يعلل

سبب تلك الحوادث المدمرة التي وقعت وقتذاك، ولم يستطع أن يقنع نفسه بحال .. أنه ربما كانت الأمور تسير في خطها المرسوم لولا شابان مفتونان من أثرياء ونبلاء الرومان أصرا على مشاهدة عشر خاص نتيجته الحتمية هي الموت لكل الأطراف . ولأنه قبل أن يضحي بأربعة من البشر ليضاعف أمواله .. فمضاعفة الثروة وانماؤها، ليس عيبًا أو محرمًا .. وأن الرجل الذي يملك بيتًا من طابقين، ليحب أن يرفعه حتى يناطح السحاب .. لكنه لم يأخذ لنفسه عبرة حينما حاول ذلك مرة في أحد قصوره في روما، فتهدم القصر من أساسه وعلى من فيه من جوار وعبيد، وفقد بسبب ذلك مالًا كثيرًا سالت له الدموع ..

ولكن نهمه وحبه للمال كانا وليدين معه منذ كان صبيًا .. وكان يحلم متى يصير من أصحاب الملايين، وحينما صار يمتلك أربعمائة ألف قطعة من الذهب جعلت من حقه أن ينضم لطائفة الفرسان ويترك طبقة العامة ولد ونشأ وترعرع فيها، اشتد نهمه للمال وجنونه نحو الاستمرار في الصعود .. ولو قنع بالقليل لما فقد الكثير! وما طار طير وارتفع .. إلا ناله الموت فوقع!

وما كان ثمة شك في أن شؤم اليوم ونحسه ظهر في بدايته .. ذلك حينما نال جانيكوس ثلاثين جلدة .. على الريق .. ولم يكن من الحكمة أن يجلد أحد المصارعين . لكن نظام العهد وقوانينه .. في ذلك العصر .. واجبة الاحترام، وإخلال أحدهم بالنظام يجب أن يقابل بالحزم والعقاب على الفور ودون أية رحمة .. كذلك كان هناك الشعور بعدم الرضا يجتاح نفوس المصارعين جميعًا وخاصة للنهاية المحتومة لرفاقهم الأربعة، وربما ينقلب ذلك الشعور بثورة .. فلا أقل من أن يبادر باتياتوس بإطفاء الشرارة قبل أن تجد وقودًا صالحصا تشتعل فيه.

وبكر لنتليوس باتياتوس ليرى بنفسه الترتيبات النهائية التي أعدها لراحة الضيوف، حتى حضروا فرافقهم إلى المقصورة المرتفعة التي أعدت لجلوسهم بحيث تشرف تمامًا على كل شبر في أرض الملعب .. وكان قد وضع بنفسه الوسائد والحشايا والمساند فوق الأرائك، كما أمر بتقديم النبيذ المثلج مع أطباق الحلوى والمشهيات حتى لا يشعروا

بالظمأ أو الملل أثناء العرض .. وهم مسترخون تحت مظلة عريضة من الدمقس الثمن، وخلفهم أربعة من العبيد يحملون مراوح وريش النعام العريضة على استعداد لتحريكها إذا ما ازدادت حرارة الجو.

لما كان الوقت ما يزال مبكرًا، فقد بدأ العرض بفرقة من الموسيقى تعزف أعذب الألحان، وفتاة من الجواري الراقصات تتلوى كالثعبان تعرض فنها الشرقي . ولكن كل ذلك لم يحظ باهتمام الضيوف الذين كانوا يتحدثون عن ارتفاع الأسعار في روما وما تتكفله المعيشة المتواضعة لأي نبيل روماني ..

وكان ضيفًا براكوس .. هما صديقه كورنيليوس لوسيوس وزوجته ..

ومالت الزوجة تهمس في أذن زوجها شيئًا ..

فقال لها مُشيرًا إلى براكوس ضاحكًا ..

– أخبريه بنفسك ..

– لا .. لا أستطيع ..

وانحنى براكوس جهتها وأخذ يدها وطبع عليها قبلة حارة قائلًا:

– وهل هناك شيء لا تستطيعين اخباري به يا عزيزتي؟

– اذن سأهمسه في أذنك ..

وحين فعلت ذلك غمغم قائلًا:

– طبعًا .. طبعًا ثم أشار لباتياتوس قائلًا:

– نريد أن نرى اليهودي هنا قبل القتال ..

وبقدر ما خالط باتياتوس من بعض ذوي الأمزجة الغريبة من الرومانيين الذين حضروا لمشاهدة عروض خاصة أو ممن قابلهم في الحياة العامة، فإنه لم يستطع أن يعرف الغرض من ذلك الطلب الغريب، ولكنه لم يسعه إلا أن يرسل في طلب اليهودي . فحضر

في حراسة اثنين من المدربين، وانطلقوا به حتى وقفوا أمام المقصورة وكان يتشح بعباءة طويلة من الوصف الخشن .. عيناه الخضراوان الباهتتان تنظران إلى الأمام وكأنه مسحورة بقوة مغناطيسية ..

وشعر كابوس بالخوف .. فتلك أول مرة يرى فيها أحد المصارعين على قيد ذراع منه، دون حاجز أو قضبان حديدية تفصل بينهما، وبالرغم من وجوده تحت حراسة اثنين من المدربين الأشداء، لم يكن ذلك باعثًا على الاطمئنان .. والرجل لا يبدو أنه إنسانًا إطلاقًا .. بعينيه الخضراوين وفمه الرفيع وأنفه المقوس كمنقار الصقر ورأسه الحليقة ..

وقال براكوس: مره بأن يخلع العباءة عن جسده ..

فغمغم باتياتوس: تجرد عن ثيابك!

ووقف اليهودي برهة لا يتحرك، ثم بحركة لا شعورية خلع العباءة وألقاها على الأرض عند قدميه، وبقي عاريًا تمامًا بجسمه النحيل وعضلاته البارزة كأنه تمثال من البرونز .. وتظاهر لوسيوس بالسأم بينما ظلت زوجته مشدوهة فاغرة فاها تتنفس بصعوبة وسرعة ..

وقال براكوس في ضيق:

– حيوان يكسوه الشعر ..

وانحنى اليهودي مُستعيدًا عباءته ثم استدار عائدًا .. يتبعه الحارسان ..

وقال براكوس .. اجعله في الدور الأول من العرض ..

–٦–

وفي بيت المفاجآت .. وهو حظيرة ينتظر فيها المصارعون قبل القتال مباشرة وتفتح على أرض الملعب، جلس الثلاثة ينتظرون عودة اليهودي .. وقطع درايا الزنجي الصمت قائلًا باللاتينية:

– إذا رضيت عنك الآلهة .. اختطفك الموت في طفولتك!

وقال سبارتاكوس:

– هذا كلام فارغ .. فما ولد طفل من بطن أمه إلا ليعيش ..

– أتؤمن بعالم آخر تنتقل إليه أرواحنا بعد الموت؟

– كلا ..

– إذًا فيم تؤمن يا سبارتاكوس؟

– أنا أؤمن بنفسي .. وأنت تؤمن بنفسك موجودًا .. لا غير!

فقال التراسي الجميل المدعو بوليموس ساخرًا

– أنا وأنت؟ وهل نحن إلا لحوم على منضدة باتياتوس القصاب؟

فقال درايا في حزن:

– هل تعلمان أني أرحب بالموت؟ أجد فيه نهاية لآلامي وشفاء لوحدتي وعلاجًا لما أشعر به من شوق وحنين لأسرتي وأبنائي! اسمع يا سبارتاكوس .. أنا لن أقتلك يا صديقي ..

– وهل طلبت منك الرحمة؟ إن أحدنا لابد أن يموت قبل الآخر ..

وسمع الحراس حديثهم فدقوا على جدار الحظيرة يأمرونهم بالصمت .. وأقبل عليهم اليهودي دون أن يفتح فمه .. لم يتكلم أبدًا .. بل وقف داخل الباب متشحًا بعباءته منكس الرأس حزنًا وخجلًا ..

ودوي الطبل فهب التراسي الشاب واقفًا وشفتاه ترتجفان تأثرًا .. وخلع ثوبه .. وفعل ذلك اليهودي أيضًا وخرجا إلى أرض الملعب ..

وظل الزنجي جالسًا كأنما الأمر لا يعنيه، فالموت حق على أي حال، ووضع رأسه بين

ذراعيه يستعيد ذكرياته . أما سبارتاكوس فقد وقف ينظر من فرجة في الباب ليشاهد نتيجة القتال ..

وتوسط التراسي واليهودي الملعب ووجههما إلى الضيوف الذين ابتاعوا أرواحهما بالمال . ثم جعلا بينهما مسافة عشر خطوات من الرمال وضوء الشمس

وتقدم المدرب الذي سيدير المباراة إلى المنصة يحمل وسادة حريرية عليها خنجرين .. كانا يلمعان تحت أشعة الشمس يعرضهما على الضيوف . لكل خنجر مقبض من خشب البلوط الأسود، نصله المقوس قليلًا طوله اثنتا عشرة بوصة، مسنون ماض كموس حلاقة لو لمس جلد فيل عن قرب لشقه نصفين ..

وأومأ براكوس، وعندئذ تقدم المدرب لطرفي المبارزة حتى يختار كل منهما سلاحه ..

وتراجع كل منهما متحفزًا متربصًا ترتعد عضلات جسمه كالمحموم، ويدق قلبه في عنف كالآلة البخارية .. كانا وهما عاريين تلمع الخناجر في قبضتيهما أشبه بوحشين كاسرين في الغابة يوشكان على الانقضاض ليقضي أحدهما على الآخر .. ودارا دورتين حول بعضهما ثم اشتبكا وسرعان ما انفصلا وشوهد خط من الدماء بطول صدر اليهودي.

ومع ذلك فلم يبد على أحدهما أنه لاحظ شيئًا .. لقد كان عقل كل منهما وعيناه متركزين في وجه الآخر كأنما يقرأ أفكاره .. ثم اشتبكا وأمسك كل بيمناه ذراع غريمه الأيسر وقد التصق جسماهما وتقارب وجهاهما، وكانت عضلات الأذرع متصلبة نافرة يريد كل منهما أن يخلص يمناه أولًا .. ليقتل ! كان التوتر قد بلغ أقصاه في تلك اللحظة .. وهما مطبقان على بعضهما في صمت مكشرين عن الأنياب .. كل منهما يكره الآخر .. ولا يفكر إلا في أن يقضي على غريمه ليعيش هو .. حتى ولو لثوان معدودات!

ونزع كل منهما قبضته عن الآخر وابتعدا في سرعة .. وظهرت علامة حمراء على ذراع التراسي . وكانا يتنفسان في صعوبة ويرتعدان . ثم انقض التراسي على غريمه فجأة شاهرًا سكينه وفكأة ركع اليهودي على ركبتيه، فطاشت الضربة في الهواء واختل توازن

التراسي فسقط على الأرض، وفوقه اليهودي.. ورفرف شبح الموت، فمضي التراسي يتلوى ويستدير ويركل بساقيه وقدميه ليتفادى نصل الخنجر اللامع، بيد أن اليهودي كان فوقه تمامًا ويطعن ويطعن في كل جزء من جسم غريمه تصل إليها يده في عنف وقوة وجنون .. واستطاع التراسي بركلة قوية في فك غريمه أن يبعده قليلًا، وينهض على قدميه واقفًا .. والدماء الغزيرة تنزف من جروحه العميقة وجسمه الممزق .. لكن الحياة والقوة كادتا تغادرانه عقب المجهود الكبير الذي استنفده في إبعاد اليهودي عنه والوثوب على قدميه .. فجعل يطعن الهواء بخنجره دون أن تصل يده إلى اليهودي الذي وقف ينظر صامتًا دون أن يحاول أن يعيد الكرة عليه . وفي الحق لم يكن ثمة أية حاجة به لذلك .. فالتراسي وبه تلك الإصابات القاتلة .. كان ينزف روحه بسرعة .. ليغطي الرمال تحت قدميه بالدماء الغزيرة.

وكان الضيوف ينظرون في إعجاب وقد شدت أبصارهم إلى المباراة كالمسحورين .. فلما أفاقوا من ذهولهم صاحوا بصوت واحد: اقتله .. اقتله .. اطبق عليه!

بيد أن اليهودي ظل مستمرًا لا يتحرك .. ولم تكن به سوى تلك الإصابات الطويلة في صدره .. وبعد لحظة ألقى السيكن من يده .. ونكس رأسه في الأرض ..

وسقط التراسي على ركبتيه .. بعد أن أفلت خنجره من يده .. وكان يلفظ أنفاسه الأخيرة ..

واستمر صخب الضيوف وصياحهم .. اقتله .. اذبحه ..

وعندئذ وثب المدرب وفي يده سوط طويل هوى به على ظهر اليهودي صارخًا .. استمر في القتال .. ومع ذلك فلم يتحرك والسوط يهوي على ظهره مرات ومرات .. وفي تلك اللحظة انكفأ التراسي على وجهه وهو يئن أنينًا متقطعًا خافتًا وهو يرتعد قليلًا .. ثم سكن جسمه للأبد .. فتوقف المدرب عن جلد اليهودي.

جوكان درابًا الزنجي قد نهض ووقف بجوار سبارتاكوس يشاهدان ما يدور في الميدان ..

وفي تلك اللحظة أسرع بعض الجنود إلى جثة التراسي يطعنونها بالحراب، بينما أخرج أحدهم مطرقة ضخمة كانت معلقة في حزامه وهوى بها في وحشية على رأس المسكين فهشمها ثم رفع مطرقته ملوثة بالدماء وأشلاء المخ وهو ينحني للضيوف بكل احترام .. وفي نفس الوقت أقبل زميل له يدفع حمارًا وسط الملعب، وكان الحمار يحمل تاجًا من الريش الملون فوق رأسه، وعلى ظهره غطاء من الجلد المزركش معلق فيه زوج من السلاسل الحديدية ربطت بقدمي التراسي ثم هوى المدرب بسوطه على ظهر الحمار فمضى يعدو جارًا خلفه الجثة حول الملعب فوق الرمال بين هتاف المتفرجين وتصفيقهم .. ومنديل السيدة يلوح في الهواء غبطة وسرورًا حتى خرج الموكب العجيب من الملعب.

وسرعان ما بدا الجنود ينثرون الرمال فوق الدماء ويعيدون أعداد أرض الملعب للمباراة القادمة بين درابا الزنجي وسبارتاكوس!

–٧–

هرول باتياتوس إلى المقصورة يقدم اعتذاره العميق لأن المبارزة لم تتم حسبما هو متفق عليه فقد رفض اليهودي أن يذبح غريمه حتى تسيل الدماء الثمينة والتي دفع براكوس ثمنها غاليًا – من رقبة الضحية المسكينة .. ولكن براكوس كان في أشد حالات ابتهاجه ورضاه، فرفع كأسه في يده عاليًا وأسكت باتياتوس قائلًا:

– ولا كلمة أيه الرجل .. لقد أجاد اليهودي وهذا يكفينا أليس كذلك؟ كانت حركته بارعة وحق الآلهة وإن استمتاعنا بلحظات قصيرة تم فيها النصر، لخير من انتظارنا ساعات في محاورة ومداورة مملة ..

ونظر إلى رفاقه قائلًا:

– هل رأيتم قفزة الموت؟ لقد قرر التراسي أن ينهي المباراة بتلك الوثبة الانتحارية .. أما الهزيمة والفناء أو النصر والبقاء . وإنني أهبك حياة اليهودي الذي توقع تلك الحركة المفاجئة التي لو لم يأخذ حذره منها لشقت بطنه وأخرجت أمعاءه في الحال .. وسنشرب

نخبه الآن .. أليس كذلك يا رفاق؟

-٨-

قال درايا معلقًا على المباراة.

- لو استطاعت الحجارة البكاء .. لحفت ما فيها من الدموع .. وإننا لنخطو فوق الشوك ونعيش في الألم ومع ذلك فلا نشعر برغبة في البكاء ..

فأجابه سبارتاكوس:

- نحن مصارعون ..

- وهل قد قلبك من الصخر؟

- إننا عبيد، والمعروف أن العبد إما قلبه من حلمود .. أو خلق بلا قلب! ربما كانت لك ذكريات سعيدة تعيش فيها يا أخي .. أما أنا فمن سلالة العبيد ولا أجد في حياتي شيئًا طيبًا أذكره!

- لذلك كنت تشاهد مأساة أخيك التراسي دون أن تتحرك مشاعرك؟

- وما جدوى البكاء أو الحزن؟

- عجبي لك يا سبارتاكوس! نحن مختلفان في اللون وفي الطباع أيضًا، ففي وطني حينما يفيض الحزن بقلوبنا نطهرها بالدموع .. ما أنتم .. فما أقسى قلوبكم أيها البيض! انظر إلي .. ماذا ترى؟

- أرى رجلًا يبكي كالنساء.

- وهل تنقص الدموع من قيمة الرجال؟ انصت إلي يا سبارتاكوس . لقد أقسمت ألا أنازلك . ولتلعنني السموات إن فعلت! نعم. لن أقاتلك أو أسفك دمك .. هذا قسمي:

فأجابه سبارتاكوس:

– وما الفائدة؟ إذا لم نتقاتل – ذبحونا معًا!

– إذن اقتلني أنت يا صديقي .. فقد سئمت الحياة ..

واستدار الزنجي درابا في ثورته العارمة وهوى بقبضته على جدار الحظيرة حتى اهتزت .. وبغتة هدأ ثم جلس ودس رأسه بين يديه . فذهب إليه سبارتاكوس ورفع رأسه ثم مسح دموعه في رفق ..

– ألم تتعلم أنه محظور على المصارعين أن يتصادقوا أو يتحابوا؟

اصمت .. اصمت واتركني بحق الآلهة!

–٩–

ولم يكن اسم سبارتاكوس بالنسبة لكابوس وقتذاك من الأهمية بمكان، بل كان اسمًا لا يختلف عن باقي أسماء أهل تراسيا، والتي كانت دائمًا تنتهي بمقطع متشابه .. جانيكوس، سبارتاكوس، مينيكوس، فلوزكوس أو لباكوس .. وكانت هذه الكلمة (تراسي) تطلق على جميع القبائل التي تقطن الإقليم الجنوبي من البلقان ثم عممها الرومانيون على جميع البرابرة الذين يحتلون مساحات شاسعة من الأراضي تمتد شرقي البلقان حتى البحر الأسود . ولغتهم الغالبة هي اليونانية وسلاحهم المفضل .. (السيكا) السكين ذات النصل المقوس .. ولقد أسر الرومان عشرات الألوف من أبناء تلك المناطق بعد أن اجتاحتها جيوشهم .. ولقوة بأسهم وشدة مراسهم في المعارك والقتال .. كانوا يختارونهم في الأعمال الشاقة العنيفة دون باقي الرقيق ..

***

وبرز سبارتاكوس في الميدان يتبعه الزنجي المارد درابا – والذي كان يفوقه في بسطة الجسم وطول القامة – والأول يحمل خنجره .. والثاني شوكته وشبكته .. اثنان من البشر

لكنها في نظر الضيوف الرومانيين، مجرد حياونين مملوكين لروما، أرواحهما قد اشتريت بالمال ودماؤهما وضيعة غير نقية .. لا تساوي أكثر من لحظات تسلية يقضونها في أسعد حالات سرورهم ولهوهم الفارغ.

وفجأة .. رأى كابوس ما لم يحلم به في حياته .. فلقد جن المارد الأسود .. إذا كانت كلمة جنون تكفي للتعبير عما أصاب الزنجي العملاق! ولو أدرك ما كان يفكر فيه ذلك العبد الأسود وقتذاك .. و{اى بخياله ذلك المنزل الريفي البسيط بجوار النهر البعيد حيث زوجته وأطفاله ترفرف عليهم السعادة والطمأنينة، وتلك الأرض الطيبة التي كانت تنبت نباتًا حسنًا وفاكهة يكد فيها درابًا ويعرق من أجل محصول وفير يكفيه وأولاده عناء التشرد والجوع، قبل أن تهبط إليها جحافل الرومان وجنودهم قساة القلوب فيذبحون النساء والأطفال .. ويجمعون الرجال .. من أجل الذهب ..

لو فهم كايوس ذلك، لأدرك أن درابا لم يجن .. بل كان في كامل عقله ووعيه آنذاك ..

بيد أنهم .. لم يفهموا إلا أن المارد الأسود قد أصابه مس من الجنون، وشاهدوه يلقي بشبكته بعيدًا عنه وهو يطلق صيحة عالية .. ثم ينطلق بأقصى سرعته إلى المقصورة التي جلس فيها الضيوف .. وقد حاول أحد المدربين أن يعترض طريقه مصوبًا حامه إلى صدره، بيد أن الزنجي كان قد دفعه في بطنه بشوكته الطويلة الحادة فانقلب يتلوى على ظهره كأنه سمكة كبيرة خرجت لتوها من الماء . واستمر درابا في تقدمه السريع حتى اعترضه جدار الملعب الحديدي ذي الستة أقدام ارتفاعًا فأمسك القضبان بين يديه وهزها في عنف وإذا بها تسقط وكأنها من ورق .. فقد استحال العبد الأسود شيطانًا له قوة شمشون .. تدفعه إلى المقصورة قوة سحرية غير طبيعية .. فبدا وكأنه سهم ناري انطلق من القمر ليصيب الهدف!

وأفاق الجنود من ذهولهم فأقبلوا مسرعين من كل صوب وألقى بنفسه على الأرض حتى مر الزنجي به، وما أن أولاه ظهره حتى رماه برمحه بكل قوته، فاخترق الرمح ظهر

الزنجي حتى خرج من صدره ومع ذلك فلم يتوقف، واستمر في طريقه المرسوم .. وانطلق رمح آخر فاخترق جنبه الأيمن فترنح قليلًا ولكنه لم يقف، ثم انطلق ثالث في أعلى ظهره ورابع في عنقه .. وكان قد وصل إلى طرف المقصورة التي انكمش فيها الضيوف مذعورين .. ثم سقط على ركبتيه والشرر ينطلق من عينيه .. والدم يطفح من بين شفتيه .. ثم هوى ولفظ آخر أنفاسه!

أما سبارتاكوس .. فلم يحرك ساكنًا أثناء كل ذلك، وكان ذلك من حسن حظه .. إذ لو كانت قد بدرت منه آية حركة لمات على الفور .. اكتفى بأن ألقى خنجره في الأرض ووقف كالتمثال دون حراك ..

القسم الرابع

-١-

وفي (فيلاسالاريا) حيث اجتمعت نخبة من سيدات وسادة الرومان يقضون ليلة في ضيافة ذلك النبيل الإقطاعي (انطونيوس كابوس)

يتحدثون في مختلف الشئون العامة، كانت ثمة قوة قاهرة تشدهم دائمًا إلى العودة والحديث عن سبارتاكوس وثورته العارمة التي نزلت أركان الإمبراطورية وهددتها بالزوال ..

وكانوا جميعًا قد مروا في حضورهم للقصر بالطريق الأبياني .. إما من الجنوب أو الشمال وشاهدوا معالم العقاب . تشهد الدنيا والعالم أجمع بفداحة القانون الروماني وقسوته ..

ومن المؤكد أن أغلب الرومان المعتدلين قد تقززت نفوسهم من تلك الوحشية البالغة البعيدة عن الإنسانية والأخلاق، وكان من ويلهم أن العقوبة أكثر مما تستدعيه الضرورة، حيث بالغ القائمون بالأمر في الانتقام والتمثيل بجثث العبيد الخارجين عن القانون، وأن ثروة وطنيه كبرى قد ذهبت مع الريح هباء كان من الممكن الاستفادة بها — بيد أن القلة كانت على نقيض هذا الرأي مبررين عدالة ما حدث بأن التساهل في القمع والزجر والتشدق بالرحمة والإنسانية، كل ذلك لا محل له حيث يكون نظام الحكم مهددًا بالانهيار وأرواح طبقة الحكام والنبلاء ترقص على كف عفريت!

وكان على رأس تلك الفئة الأخيرة — الفيلسوف والمؤرخ — شيشيرو الذي كان صوته مدويًا طالبًا بالمزيد من القمع والتأديب والإرهاب.

***

وكان شيشيرو – أعجوبة زمانه في تلك الأيام – حيث مارس القانون وهو في الثامنة عشرة، واشترك وهو في العشرين في بعض الحروب بقصد كسب الصيت – ولم يصب بخدش .. ووصل إلى أعلى المناصب الإدارية ومنها حاكم جزيرة صقلية، وهو لم يتجاوز الثلاثين – وكانت مقالاته في الفلسفة والحكم وخطبه الرنانة في المجتمعات تقابل باستحسان، بالرغم من أن أكثرها كان منقولًا عن كتاب سبقوه .. لكن الجهل الذي كان متفشيًا في تلك الأيام كان يغشي الأبصار.

وهو صاحب فكرة المنفعة والمصلحة الجماعية في العقوبة حيث ربطها بالعدالة – فقرر أنا العقوبة بمنفعتها للجماعة حيث تقوم بحماية الأمن والمجتمع لا تؤدي وظيفتها وتحقق عدالتها إلا إذا كانت قاسية بالغة العنف لتأديب الجاني وقمع غيره حتى لا يتكرر الفعل من آخرين..

وحينما التقت به هيلينا في أحد صالونات القصر حيث كان منهمكًا في الكتابة .. وشعر بأنها ما زالت متأثرة بروح العطف على أولئك الضحايا التعساء .. قال لها:

– إني أدرك شعورك، وشعور الكثيرين الذي يشاركونك ذلك الرأي، ولكن قبل أن تحكم على روما بالطغيان والاستبداد وقسوة حكامها ينبغي أن تفهم لماذا قمنا بتدمير قرطاجنة وصلب ستة آلاف عبد على هذا النحو الذي شاهدناه .. فليست ثورة سبارتاكوس هي الأولى من نوعها في التاريخ، فمنذ مائة وعشرين عامًا ثار عبيد قرطاجنة علينا وتعبنا كثيرًا في اخماد ثورتهم وبعد ذلك بجيلين فوجئنا بثورة العبيد في مناجمنا بأسبانيا .. وأعقب ذلك ببضع سنوات ثورة عبيد صقلية التي هزت الجمهورية من أساسها .. ثم تلك الثورة الكبرى التي قام بها العبد سالفيوس والتي نجم عنها حرب السرفيل – وبعد ذلك استمرت الحرب الباردة بيننا وبين العبيد .. حرب صامتة يغذيها الحقد والكراهية المتبادلة بين السادة والعبيد، حرب يخجل المؤرخ أن يكتب عنها . بل إننا لنخشى أن نسجلها ليقرأها أبناؤنا لأنها أمر جديد في عالمنا الحاضر . لقد شهد جنودنا مئات الحروب والغزوات، وشهد العالم آلاف الخصومات بين الأمم والمدن والجماعات .. حتى بين

العائلة الواحدة .. بيد أن الثورة لقلب نظام الحكم ممن يخدموننا في حقولنا وقصورنا وغرف نومنا .. كانت أخطرها جميعًا .. فلا أقل من أن نخمدها بكل تلك القسوة والوحشية دون أن يعتب علينا عاقل!

-٢-

زعم بعض المؤرخين أن تبعه كل ما حدث .. ودماء تلك الآلاف التي أريقت .. يقع على رأس باتياتوس، لأنه لم يقم بقتل المصارعين .. اليهودي وسبارتاكوس .. تنفيذًا للاتفاق الذي أبرمه مع براكوس بالرغم من أن ذلك التصرف منه كان مما يجيزه القانون الروماني وقتئذ، ولكن المؤكد أن المؤامرة لم تنبت في رأس سبارتاكوس وحده، بل كانت مختمرة في فكر مئات غيره ممن كانوا يحلمون بالخلاص أو الموت ..

ولقد هرب النوم من عيني فارينيا وهي تجلس إلى جانبه وهو مستغرق في النوم وقد أزعجها أنينه المتواصل وحركاته العنيفة التي كان يعانيها أثناء أحلامه وكان كابوسًا ثقيلًا يجثم على أنفاسه، كان سبارتاكوس يحلم بخنجر مقوس يشق قلبه، فصرخ من الألم، وعندئذ أيقظته .. فلم تعد تحتمل أكثر من ذلك.

كان كل حبها ومشاعرها .. بل حياتها ومستقبلها وماضيها والدماء التي تجري في عروقها، مخصصة لمعبودها سبارتاكوس، أول من احترم وجودها وشاركها آلامها وأخلص لها الحب الذي افتقدته منذ كانت طفلة تجري في الحقول وكان أول معلم لها في التسامح والتفاهم وأضاء أمامها آمالًا وآفاقًا واسعة لعالم يسوده السلام ..

هزته برفق وهي تحتضنه كأم تحتضن وليدها الخائف من المجهول وتبعث في قلبه الطمأنينة وسألته ..

– بم كنت تحلم؟

فهز رأسه ..

– ضمني إلى صدرك .. ولن تحلم أحلامًا شريرة بعد الآن .

فأخذها بين أحضانه وهمس:

- هل فكرت في أننا سنفترق يومًا؟

- أجل ..

- وماذا تفعلين عندئذ يا نور عيني؟

فأجابته في بساطة وصراحة:

- أقتل نفسي ..

فقال وكان قد هدأ وطرد النوم من عينيه؟

- وهذا ما أريد التحدث معك عنه ..

- ولماذا تفكر في المجهول ونحن الآن معًا؟

- لأنك .. لو أجبتني حقيقة لما فكرت في إيذاء نفسك إذا ما قتلت أو أبعدوني عنك .

- أهذا رأيك؟

- نعم.

وسألته:

- وأنت .. ماذا تفعل لو مت؟ هل تقتل بعدي؟

- لا .. لأنني أحب الحياة ..

- ولكني لا أجد للحياة طعمًا بدونك ..

- أريدك أن تقسمي على شيء وتحافظي على قسمك ..

- إذا ما أقسمت فلن أحنث مطلقًا ..

– أريد منك أن تقسمي على أن تظلي بعدي .. مهما حدث لي ..

وصمتت برهة تفكر ..

– هل تقسمي يا حبيبتي حتى يطمئن قلبي؟

وأخيرًا أجابت ..

– حسنًا .. أقسم على ما تريد ..

وبعد ذلك قام هادئًا مستريح البال ..

–٣–

دقات الطبل تعلن بدء تمرينات الصباح التي تستغرق أربعين دقيقة يقضيها المصارعون في الجري داخل فناء الملعب بعد أن تناول كل منهم كوبًا من الماء البارد .. ويبدأ اليوم عادة بأن يفتح الحراس أبواب الزنزانات – وإذا كان مع المصارع امرأة فعليها أولًا أن تتنظف جيدًا قبل أن تنضم إلى باقي النساء العاملات . فمعهد المصارعين لا محل فيه للعاطلين أو العاطلات، فالنسوة يمسحن البلاط ويطبخن ويتعهدن حدائق المطابخ ويعملن في الحمامات غسالات ومدلكات، ويحلبن الماعز والأبقار – تحت رقابة باتياتوس الصارمة كأي سيد اقطاعي مستعينًا بالسوط عند اللزوم، نظير اطعامهن الفضلات المتخلفة على الموائد .. وكان يشعر بأن الجميع يخشونه ويهابونه ويرتعدون لمرآة فرقًا . فيما عدا سبارتاكوس وفارينيا . كان يخشاهما ويشعر بالقلق الشديد حينما تتقابل أعينهم ويرى معالم التحدي والكراهية العميقة ... فكان ينفث عن غضبه بجلدهما لأتفه الأسباب ..

وفي ذلك الصباح الخالد .. كان الشعور بالحقد والمرارة متبادلًا بين السادة والعبيد .. فكان باتياتوس ثائرًا لخشيته أن يجره ماركوس إلى المحكمة ليطلب منه تعويضًا شاملًا لعدم تنفيذ العقد ولما لحقه وضيوفه من إهانات بالغة، أما العبيد فكانوا أكثر ضيقًا وهياجًا وهم يلقون أسوأ معاملة من المدربين شهدها من قبل، حتى في المطبخ كانت النسوة

ساخطات على كبير الطباخين الذي لم يكن هو الآخر في حالته العادية فكان يهوي بعصاه الضخمة على ظهورهن ليحثهن على سرعة الحركة والنشاط ..

وقد اصطفوا استعدادًا لتمرينات الصباح أمام السور الحديدي، حيث صلبوا الزنجي درابا، ويراه زملاؤه ليشهدوا نتيجة التذمر والعصيان وسوء السلوك .. ووقفوا في صفين .. وفي المقدمة سبارتاكوس، وعلى يساره جانيكوس، وعلى يمينه ذلك المصارع الغالي .. كريكسوس .. وأمامهم أربعون جنديًا بكامل أسلحتهم ومعداتهم، والمدربون الأشداء بسيوفهم المشهورة وتكلم الغالي في صوت هامس دون أن يحرك شفتيه:

– هل تصارعت؟

– كلا ..

– لكنه لم يقتل أحدًا منهم .. وهذه خسارة كبيرة .. فما دام قد تهيأ إنسان للموت، فخير له أن يفعل خيرًا من هذا ..

وسأله سبارتاكوس:

– وهل تتعشم في أن تموت ميتة أفضل؟

– لقد مات كما يموت الكلب .. وسوف تموت مثله .. وبطنك مفتوحة تأكلها الطيور!

وأدرك سبارتاكوس مغزى كلمات كريكسوس الغالي، فقد صدمته الحقيقة التي كان يبحث عنها عبثًا طول حياته الماضية ببساطة، ويشعرون بالسعادة تغمر قلوبهم! لقد نقل الرومان نظام الصلب من قرطاجنة التي كانت تجد فيه أفضل طريقة يموت بها العبد .. لكن روما عممت الصلب في كل الأسباب والأغراض دون قيد أو شرط.

وغمغم سبارتاكوس – دون أن يحرك شفتيه:

– لقد كان صديقي .. وكان يحبني، ورضي أن يموت حتى لا يقتلني!

وكان باتياتوس قد وقف أمام المصارعين وخلفه الجنود .. وكان يقول غاضبًا:

– إنني أطعمكم وأملأ بطونكم بأفضل الطعام اللحم المشوي والدجاج والأسماك الطازجة. أطعمكم حتى توشك أمعاؤكم على الانفجار، أنظف أجسامكم في حماماتي وأدللكم حتى تكتسبوا قوة وصحة، ولقد اخترت معظمكم من حيث كانوا قذرين ملوثين مجهدين في أعمال المناجم تحت الأرض، ورغم كل ذلك فالكلب الأسود قد عض اليد التي قدمت له الإحسان والمعروف . كم منكم يا ترى يفكرون مثله؟

ولزم المصارعون الصمت ..

وزمجر باتياتوس قائلًا:

– هاتوا لي زنجيًا

وأسرع المدربون حيث يصطف المصارعون السود وسحبوا أحدهم إلى وسط الحلقة .. وكما لو كان الأمر معدًا، انطلقت دقات الطبل تدوي عاليًا، ورفع جنديان رمحيهما ومضيا يطعنان الزنجي في صدره على دقات الطبول والمسكين يحاول أن يتخلص ويتملص من قبضات المدربين الحديدية، ثم سقط على ظهره فوق الرمال قتيلًا ..

والتفت باتياتوس إلى مساعديه وهو يفرك يديه سرورًا وقال:

– لن نشهد عصيانًا بعد الآن ..

وبدأت تمرينات الصباح اليومية ..

– ٤ –

بعد ذلك وحينما شكل أعضاء الشيوخ مجلسًا للتحقيق، أقسم باتياتوس صادقًا بأنه لم يكن يعلم شيئًا عن أية مؤامرة دبرها العبيد، وأكد أنه من رابع المستحيلات أن يقوم أي تفاهم أو اتفاق سابق بين عبيده المصارعين وذلك بسبب نظام التجسس الذي دسه بين العبيد . إذ كان له دائمًا اثنان من العملاء، يتصارعان بطريقة وهمية مرسومة دون أن

يصاب أحدهما بضرر جسيم .. ويقوم باستبدالهما على الدوا، ومهمتهما أن ينقلا إليه كل شاردة وواردة .. أو أية خمسة أو أقل إشارة تحدث بين اثنين، حتى يعالجها على الفوم بالحزم والاستئصال!

ولعل فيما قرره باتياتوس كل الحق والصواب .. فلقد كان في صدر كل عبد مرارة وثورة عارمة تأكل قلبه .. وكان يتوجس من أن يعلنها لأخيه خشية الانتكاس والفضيحة .. كان الشعور يغلي كالبارود ينتظر لحظة الانفجار، فلما ظهر القائد الصادق الملهم .. يحمل في يده الإشارة التي ينتظرها الجميع، تآلفت القلوب وهبوا من كل فوج وصوب فرحين مؤيدين .. تلك هي سنة الطبيعة في كل الثورات الناجحة .. شأنها شأن فاكهة الكراز تنتشر جذورها تحت الأرض بعيدة عن الأنظار، فإذا آن أوانها ظهرت سريعًا وانتشرت كالنار .. جميلة مزدهرة تخلب اللب وتستأثر بالقلب.

وسأل عضو الشيوخ باتياتوس:

– ألم تكن ثمة أي دلائل أو علامات تدل على وجود مؤامرة أو سخط؟

فأصر باتياتوس على النفي ..

– وحينما قتلت الزنجي الثاني – وعلى فكرة نحن نعتبر هذا السلوك منك لائقًا – ألم تسمع همهمة أو زمجرة احتجاج؟

– ولو همسة يا سيدي ..

– ألا يحتمل أن تكون يد أجنبية قد ساعدت قيام الثورة بالتخطيط أو المال أو مساعدة سبارتاكوس وجاتيكوس وكريكسوس؟

فأجاب باتياتوس:

– مستحيل يا سيدي .. وأستطيع أن أقسم على ذلك ..

ومع ذلك فإن الله لم يخلق للإنسان يدًا واحدة أو أذنًا وعينًا واحدة .. وكان كريكسوس الغالي هو عين ويد وأذن وسبارتاكوس – فقد كان كركسوس ينزل في الزنزانة المجاورة لسبارتاكوس، وكم من أمسية استلقى سبارتاكوس وأذنه على الجدار الفاصل يسمع من كريكسوس قصة نهاية ثورة العبيد في صقلية .. ويسمع قصة بطولة إخوانه ممن سبقوه من العبيد .. أشيل وهكتور .. حتى قصة أوديسوس سمعها من بين شفتي ذلك الغالي كريكسوس . كذلك فهم كيف كافح الينيون الإغريقي، وسلافيوس التراسي والألماني اندارت وكل الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم رخيصة في سبيل حرية الفرد .. وكان وهو ينصت لقصص رفيقه في الأسر والعذاب .. يشعر بصدره ينتفخ فخرًا وإعجابًا .. ويشعر بالأسى لأن جميعهم فشلوا في محاولاتهم ..

كانوا قد اجتمعوا لفترة قصيرة – قبل تناول الإفطار – في الحظيرة المجاورة للملعب، يخيم عليها الحزن صامتين وهم يشاهدون جثة درايا وزميله معلقين عن بعد، وأدرك سبارتاكوس أن ما فعله باتياكوس منذ قليل .. كفيل بأن يضمن له النظام والطاعة مستقبلًا . وانصرف الجنود ليجلسوا تحت الأشجار المجاورة ويفطرون بجوار فتاة صغيرة تجري بجوار المعهد ووضعوا أسلحتهم إلى جانبهم ..

ولم يرفع سبارتاكوس عينه عنهم ..

وسأله جانيكوس:

– ماذا ترى؟

كان كأخوين .. لعبا في مدرج الطفولة معًا، وعملا في المنجم جنبًا إلى جنب .. ثم معًا تحت سيطرة باتياتوس دون أن يفترقا لسنوات طوال.

– لا أدري ..

وكان كريكسوس متجهما .. وسأل بدوره سبارتاكوس.

– ماذا ترى؟

وكرر سبارتاكوس إجابته الأولى:

– لست أدري.

– ولكنك تدري كل شيء يا سبارتاكوس .. وجميع أبناء تراسيا يدعونك أباهم .. ومع ذلك فالزنجي درابا لم يكن يدعوك بذلك اللقب، وكان يحبك ولم يشأ أن يصارعك ويقتلك .. هل إذا جاء دوري معك .. هل تقتلني يا سبارتاكوس فقال سبارتاكوس في هدوء:

– لن أقاتل إنسانًا بعد الآن . لم أكن أعرف ذلك قبلًا .. ولكني عرفته في هذه اللحظة!

وسمع حديثه نحو اثني عشر رجلًا .. فتجمعوا قربه .. ولم يعد ينظر إلى الجنود .. بل مضى ينظر في وجوه رفاقه دون أن يتكلم .. كان يقرأ ما يدور في قلوبهم ويبدو في عيونهم ..

وسأله جانيكوس:

– ما الذي نفعله يا أبي؟

– سوف نعرف جميعًا ما ينبغي أن نفعله في الوقت المناسب .. والآن .. هيا إلى المطعم.

وفي تلك اللحظة .. مر بهم باتياتوس محمولًا على محفة فوق أعناق ثمانية من العبيد في طريقه إلى كابوا ليشتري المنونة اللازمة، ولاحظ بعيني الرضا والارتياح النظام التام وهم يسيرون صفوفًا إلى المطعم وكان يسير بجوار باتياتوس وكيل أعماله اليوناني ..

نعم .. عاش باتياتوس .. كما عاش وكيل أعماله اليوناني ليذبح سيده في أحد الأيام بسكين!

أما عن الذي حدث في المطعم ذلك الصباح، حيث اجتمع العبيد ليتناولوا إفطارهم، فهذا ما لا يعرفه إلا القليل جدًا .. حتى المؤرخون لم يهتموا بتسجيل تلك اللحظات الخالدة .. فالمؤرخون قد وصفوهم بأنهم ممن يملكون الأرقاء ويخشونهم ويكرهونهم لحد الموت .

بيد أن فارينيا – والتي كانت تعمل في المطبخ، شاهدته بعيني رأسها .. وذكرته فيما بعد لأخرى ثم لآخرين، وهكذا نرى .. أنه ولو أن ذلك الحديث كان يدور حتمًا همسًا .. فقد وصل لآذان العالم القادم بعد ذلك بقرون ..

وغرفة الطعام حظيرة واسعة جدرانها من الحجارة السميكة، يقع المطبخ في أحد جوانبها ويتكون من فرن طويل من القرميد ومنضدة عريضة مستطيلة . ولها بابان متقابلان يغلقان بالمزاليج بعد أن يدخل المصارعون ويجلسون على الأرض .. ويقف المدربون متمنطقين بالخناجر والسيوف في الوسط للمراقبة وحفظ النظام.

وكالمتبع يوميًا، أخذ المصارعون أماكنهم وبدأ الخدم – ومعظمهم من الجواري – يقدمون الطعام – بينما أخذ أربعة من المدربين يذرعون المكان وفي أيديهم أسواطهم المجدولة والتي تنتهي أطرافها بقطع النحاس الثقيل .. وأغلقت الأبواب من الخارج ووقف عليها جنديان عليهما النوبة في الحراسة.

رأى سبارتاكوس ذلك .. ولم يشعر برغبة حقيقية في الطعام، لإحساسه بجفاف في حلقه ودقات سريعة في قلبه .. كان على وشك أن يتخذ قراره .. أما الموت أو الحرية مهما حدث .. وكل إنسان منا يصل في حياته إلى موقف ويقول في نفسه – إن لم أفعل هذا الآن – فلن تتجدد الفرصة أبدًا .. وإذا ما ثبتت عزيمة عدد من الرجال على أمر فقل .. أن الأرض قد زلزلت زلزالها ..

وكان على سبارتاكوس أن يتحدث مع رفاقه قبل كل شيء .. فهمس لمن يجاورونه

–كريكسوس وجانيكوس وذلك اليهودي دافيد .. حتى فارينيا كانت تراقب شفتيه من بعيد

– أريد أن أقف وأتحدث .. لأفتح قلبي للجميع .. وإذا ما وقفت فلا نكوص ولا تراجع .. وسيحاول المدربون منعي!

فأجابه الغالي المارد ذو الشعر الأحمر:

– لن يمنعك مخلوق من الكلام.

وشعر المدربون بما يدور فاقتربوا وفي أيديهم الأسلحة والسياط ..

وصاح جانيكوس:

– هيا .. قف وتكلم!

وصاح أحد الإفريقيين:

– أكلاب نحن حتى تجلدونا؟!

ثم وقف سبارتاكوس على قدميه .. وقف معه اثنا عشر مصارعًا .. ومضى المدربون يضربون في جنون .. بالسياط والخناجر .. لكن المصارعون قضوا عليهم جميعًا .. وقتلت النساء الطباخ . وقد تم ذلك في لمح البصر وبأدنى صوت حتى الحراس في الخارج لم يشعروا بما حدث .. وعندئذ ألقى سبارتاكوس أمره الأول في هدوء إلى جانيكوس ودافيد وفاراكسوس ..

– اذهبوا إلى الباب .. وقفوا عنده حتى أنتهي من خطابي ..

وأطاعوه جميعًا على الفور .. واستمروا بعد ذلك في طاعته .. حينما انطلقوا في الجبال والوهاد يحاربون تحت قيادته .. يشدهم إليه حب عميق وإيمان مطلق بالقائد الشجاع الملهم!

–٧–

– التفوا حولي ..

ووقفوا جميعًا حوله .. حتى الجواري والخدم وكانوا حوالي ثلاثين امرأة ورجلين .. وأقبلت فارينيا تشق طريقها نحو خائفة مذعورة .. وأفسحوا لها الطريق فوضع ذراعه حولها وضمها إلى جانبه .. وكان يقول في نفسه:

– أنا الآن أتمتع بنسيم الحرية التي حرمها أبي وجدي وأسلافي جميعًا..

كان ثملًا والفرحة تملأ كيانه .. والنشوة تسري مع كل قطرة دماء تجري في عروقه .. وأيضًا كان يحس بالخوف وهو يدرك أن الموت ينتظره مع كل خطوة يخطوها .. وتأمل رفاقه متوجسًا .. ترى هل يجسرون على أن يرفعوا أيديهم في وجوه سادتهم الذين أذلوهم وأحالوا كرامتهم وإنسانيتهم حطامًا حقيرًا؟

سألهم:

– هل أنتم معي؟ سأكون أخًا لكم يبذل روحه ودمه قبلكم حتى نحقق ما نريده لجميع إخواننا من كرامة وحرية سأتبعكم للموت إذا اقتضى الأمر .. سنموت أعزاء أحرارًا .. فهل أنتم معي؟

وامتلأت عيونهم بالدموع وزادوا به التصاقًا .. كان بعضهم خائفًا، وبعضهم أقل خوفًا، كصغار فراخ الطير حين تلتمس الدفء والحماية تحت جناح أمها ..

– نحن رفاق في الكفاح .. نحن رجل واحد . ولكني أحترم إرادة كل شخص منكم قبل أن نخطو خطوتنا الأولى .. فمن شاء منكم أن يتركني ويبقى هنا، فلن نحمله على الانضمام إلينا قسرًا .. سننظر إلى الأمام دائمًا .. لا إلى الخلف!

وصاح أحدهم:

– ماذا تريد منا؟

– سنخرج ونحارب لنشق طريقنا بقوة إرادتنا وعزيمتنا .. فنحن أفضل المقاتلين في

روما .. بل في الدنيا كلها ..

وكان صوته قد ارتفع بالرغم منه .. ولم يبال إن سمعه الحراس في الخارج وهو يقول:

– سنؤكد للعالم حقوقنا في الحرية .. وسيخلد التاريخ أسماء مصارعي كابوا .. على مر العصور والأجيال..

وشعرت فارينيا بالسعادة والفخر يغمرانها .. لقد أحبت رجلًا ليس ككل الرجال .. أحبت بطلًا عرفته وفهمته قبل أن يسمع باسمه مخلوق في الدنيا .. وكانت تعلم يقينا بأنها مقبلة على حياة خطيرة مثيرة حافلة بالأشواك .. ومع ذلك فقد تضاعف حبها العميق له ..

–٨–

وقال سبارتاكوس:

– الجنود أولًا ..

– نحن في محنة .. واحدة

– ينبغي أن تعلموا أن الجندي لن يهرب أبدًا .. إما أن يموت أو يقتلكم، وإذا مات فخلفه آخرون .. فللجمهورية جيوش لا آخر لها ولا حصر.

ونظر إليهم ثم استطر قائلًا:

– وكذلك العبيد .. لا حصر لهم ولا آخر ..

وكان في تلك الكلمات فصل الخطاب .. فانطلقوا يعملون بسرعة .. أخذوا الخناجر والسيوف من المدربين القتلى، ثم حملوا كل شيء يستعمل كسلاح من المطبخ .. السكاكسين والسواطير والسفود وملاقط الشواء ومدقات الهاونات الضخمة التي كانت تستعمل في طحن القمح المستخدم في العصيد وكان عددها عشرين .. كما حمل أحدهم قطعة كبيرة من (عظام ساق البقر) حينما لم يجد شيئًا يحمله .. كذلك حملوا أواني الطبخ

النحاسية وأغطيتها ليستعملوها كتروس ودروع .. وعلى أية حال كان كل منهم يتسلح بأي شيء يعثر عليه، ومن خلفهم النساء .. واقتحموا الباب الكبير ثم انطلقوا يقاتلون ..

تم ذلك في سرعة مذهلة .. لكنها لم تكن بالقدر الكافي الذي يذهل الجنود ويفاجئهم .. فقد استطاع الحراس الواقفون على الأبواب تحذير إخوانهم الذين هبوا يرتدون دروعهم ويتقلدون أسلحتهم .. واصطفوا عشرات في أربعة صفوف على الجانب الآخر من القناة .. أربعون جنديًا تحت رياسة ضابطين .. واثنا عشر مدربًا مسلحون كالجنود بكامل دروعهم الثقيلة والرماح والسيوف .. يكونون أربعة وخمسية قلعة مسلحة في مواجهة مائتين من العرايا، ومن السخرية أن تسمي ما يحملونه سلاحًا .. فكانت الكفة الراجحة في جانب جنود روما الذين قهروا الدنيا بحسن تنظيمهم وقوة أسلحتهم.

شرعوا رماحهم وهم منطلقون بخطوات سريعة صفًا وراء صف ليزيلوا ما يعترض طريقهم من قذارة وأوساخ، وأحدثت أحذيتهم الثقيلة رشاشًا عاليًا في ماء القناة ووطئوا في خروجهم منها أزهار الشاطئ البرية الجميلة، كان منظرهم مخيفًا رهيبًا ولو تدبر المصارعون لحظة واحدة لولوا فرارًا مدبرين وماتوا كما يموت الذباب.

وأدرك سبارتاكوس أن مصير رسالته في الميزان .. والقيادة فن وموهبة وتضحية خاصة حينما لا يكون هدف القائد مجرد اكتساب نصر زائف تقف خلفه قوة تسنده .. وسرعان ما أصدر أمره لرفاقه بالتفرق والانتشار في دائرة واسعة حول الصفوف المتقدمة . فاستجابوا للأمر في نشاط فقد كانوا وهم أشبه بالعرايا خفافه، على نقيض أعدائهم المثقلين بالحديد والنحاس .. وكانت المسافة بينهم وبين أعدائهم مائة وخمسين مترًا، بينما المزاريق والرماح لا تطير لأبعد من ثلاثين أو أربعين مترًا .. والجندي سلاحه رمح واحد .. فإذا ألقاه لن يضمن استعادته .. ثم لن يصوب هدفه والعبيد في كل مكان من وراء وخلف يصرخون ويلعنون في غضب وهياج شديد ..

وكان قد انضم إلى المصارعين مئات من الرقيق الآخرين أقبلوا من الحقول والحدائق .. بخلاف مئات النسوة ..

وصرخ سبارتاكوس قائلًا:

– الحجارة .. اقذفوهم بكل ما يصل إلى أيديكم من طوب أو حجارة .. ثم أطبقوا عليهم ولا تخافوا!

وسرعان ما أمطرت السماء حجارة، وفوجئ الجنود بما لم يتوقعوه فصنعوا دائرة ورفعوا دروعهم يحملون بها وجوههم ورءوسهم، بينما اندفع صف مكون من عشرة جنود برماحهم إلى الأمام، وانطلق رمح فأصاب أحد المصارعين لكن النتيجة كانت وبالًا على الجنود العشرة .. فقد تكاتف عليهم العبيد وذبحوهم .. بأيديهم المجردة! وتجمع الثلاثون جنديًا الباقون في دائرة كالقلعة المسلحة .. ومعهم الضابطان والاثنا عشر مدربًا وصمدوا فترة من الوقت قبل أن ينحط عليهم سيل الذئاب الجائعة كأسراب النحل .. ويقضي عليهم جميعًا ..

وكانت المعركة القصيرة البسيطة التي دارت رحاها في معهد المصارعة .. قد وصل صداها إلى طريق كابوا حيث قضي على آخر مدرب حاول النجاة بحياته .. ومن المكان الذي وقف فيه سبارتاكوس، شاهد مدينة كابوا عن بعد بقباب قصورها الذهبية تلمع تحت ضوء الشمس، وسمع أصوات دقات الطبول تنبعث من المعكسر الكبير.

لم يكن أمامهم وقت للراحة .. فالأمور تتطور بسرعة .. وألقى نظرة نحو جثث الأربعة وخمسين رجلًا الذين كانوا رمزًا لروما الطاغية المستبدة وقد امتلأت بهم الأرض تشرب دماءهم ثم نظر يتأمل رفاقه .. كان الغالي ذو الشعر الأحمر يتهلل بوجهه البدين في فخر واعتزاز . وجانيكوس يضحك في ابتهاج . الدماء على سكينه، والحياة في عينيه .. وضم سبارتاكوس فارينيا بين ذراعيه، وكذلك فعل المصارعون بنسائهم ومضوا يدورون بهم في الهواء راقصين، حتى الجرحى منهم لم يأبهوا لجروهم وكأنها خدوش قطة، فشاركوا الجمع مرحهم وسرورهم .. وكان روما لم تعد قائمة!

ولكن سبارتاكوس أيقظهم جميعًا .. وأمر جانيكوس وبعض الزنوج بأن يخلعوا عن الجنود القتلى دروعهم في الحال .. ثم نادى في القوم من منهم يستطيع أن يرتدي زي

الرومان ويحارب بسلاحهم؟ وفي الحال كون كتيبة صغيرة كاملة التسليح قسمها إلى أربعة أقسام . وأمرهم بأن يجعلونا النساء وسط المربع فهو لا يرغب في تعرضهم لأي خطر، لكنهن ثرن محتجات مصممات على الاشتراك في القتال ولو بالسكاكين، فلما أصر سبارتاكوس على الرفض ملأن حجورهن بالحجارة.

وكانت المدرسة تقع فوق مُنحدر يُؤدي إلى الحقول – وما كاد العبيد العاملون فيها يشعرون بأن ثمة تطورات جديدة قد حدثت وأن الدائرة قد دارت على الجنود الرومان، بدأوا يتجمعون بالمئات يحملون في أيديهم المذاري الحديدة والفئوس فأشار سبارتاكوس لدافيد وأعطاه التعليمات اللازمة، فهبط المُنحدر وعاد بعد قليل وفي رفقته جمع غفير منهم فرحين بتلك الفرصة النادرة التي أتاحت لهم الخلاص من الذل والطغيان. كذلك انطلق مصارع زنجي لفتح مخزن السلاح – وكان فيه ثلاثون حربة من ذات الأطراف المُتشعبة فقام بتوزيعها على من لا يحمل سلاحًا.

ولقد استغرق ذلك وقتًا كان عامل الزمن فيه هامًا بالنسبة لسبارتاكوس الذي كان يريد الابتعاد عن المعهد وعن كابوا.. ومن كادت تلك الترتيبات تتم وأصبح تحت إمارته عدد لا بأس به من المُقاتلين الفدائيين، أمرهم بأن يتبعوه.. فانطلقوا عبر الطريق ثم اخترقوا الحقول إلى قمم التلال المُرتفعة.

وعندئذ شاهدوا طابورًا طويلًا من الجنود يبلغون حوالي المائتين يتحرك بسرعة قادمين من كابوا.. وما كادوا يرون العبيد وقد تملكوا المرتفعات حتى تباطئوا في سيرهم ثم صنعوا حركة التفاف في الحقوق لمحاصرتهم.. وكان سكان المدينة قد أقبلوا من دورهم ليشهدوا مصارعات ثنائية بلا مقابل، وعلى نطاق واسع لا تحده أسوار الملاعب.

وكان من المُمكن أن ينتهي كل ذلك في ساعة أو في مدى شهر.. ويضحك الرومان قائلين في سخرية «لم تكن إلا زوبعة في فنجان» فكثيرًا ما هرب العبيد، ولجأوا إلى الحقول أو الغابات ليعيشوا كما تعيش الحيوانات البرية، يختلسون طعامهم مما تصل إليه أيديهم ليلًا من الحقول أو الأكواخ حتى يسقطوا واحدًا إثر واحد ويصلبوا واحدًا إثر واحد.. فلا

ثمن لدماء العبد.. فذلك ما جرى به العرف وأقرته القوانين.

وحينما شاهد سبارتاكوس طابور الجنود.. قرر بأنه لا يوجد ثمة مكان للاختفاء.. أو جحر يتسللون إليه وعندئذ استدان لرفاقه الهاربين وقال لهم في عزم:

- سوف نُواجه الجنود ونُقاتلهم!

- ٩ -

وذات يوم سأل سبارتاكوس نفسه «من الذي سيُؤرخ معاركنا.. ومكاسبنا وخسائرنا؟ من الذي سيُسجل الحقيقة؟» وكانت الحقيقة مُستحيلة التصديق فعلًا.. ليست لأنها أكثر عدة وعددًا من العبيد.. بيد أنهم لم يتوقعوا دخول أية حرب حقيقية معهم، أما العبيد فكانوا يدركون أن الجيش قد أقبل لسحقهم وأن المسألة ما هي إلا حياة أو موت.. ربما أنهم يعدون أمواتًا فعلًا وهم أحياء فلا بأس من الموت في ميدان الشرف والجهاد.

فهبطوا من المُنحدرات كالسيل العرم يريدون الانتقام لهم ولأسلافهم ممن أذلوهم قرونًا طويلة.

وفوجئ الجنود بالمئات من العبيد تُهاجمهم كأسراب النحل من كل مكان، وبكل آلة عرفها الإنسان. فانطلقوا يقذفون رماحهم حينما اتفق وساد فيهم الهرج والمرج تحت وابل من الحجارة كانت تلقيها النسوة من فوق التلال.

إذن فالحقيقة التي لا مراء فيها، أن الجيش الروماني بجبروته وهيبته قد هزمته حفنة من العبيد، فقتل منهم الكثير وهرب القليل.. ذلك هو ما حدث حقًا وصدقًا في الموقعة الأُولى، رغم أن القصة قد تداولتها الألسنة بِطُرق مُختلفة.. ومن ذلك التقرير الذي أرسله قائد قوات كابوا إلى روما.. فقد كتب يقول:

- قامت حفنة من المُصارعين بثورة في معهد باتياتوس انتهت بذبح جميع القوة المُسلحة، ثم هربوا جنوبًا في الطريق الأبياني فبعث نصف قواتي لقمعهم والقضاء عليهم،

وكانت خسارتنا جسيمة ولم نتمكن من القضاء عليهم. ولا نعرف حتى الآن من هو زعيمهم أو القصد من حركتهم.. ولكن الذي نعلمه على وجه اليقين أن موجة من العصيان قد بدأت تنتشر بين جميع أرقاء المنطقة – والمواطنون هُنا يصرون على ألا يتردد مجلس الشيوخ في اتخاذ قرار حاسم لتدعيم القوة الموجودة في كابوا حتى نستطيع توجيه ضربة حاسمة.

وبعد تردد قصير أضاف إلى تقريره الجملة التالية «وقد حدثت جملة قلاقل وغارات على بعض المزارع بقصد النهب والسلب يخشى أن يتسع نطاقها».

وبالطبع كان باتياتوس يتحدث باكيًا مع كل إنسان عن مدى الكارثة التي لحقته وضياع مجهود سنوات عديدة في الهواء.. كذلك من الثابت أن مُعظم القصص المُختلفة كانت تتردد على ألسنة كبار الإقطاعيين الذين كانوا يرتعدون فرقًا ويخشون الذبح حتى ممن تبقى لهم من عبيدهم المُخلصين.. فكان أحدهم يقول مثلًا:

– أجل.. لقد أنبأني بعض اتباعي برؤيته لذلك العبد سبارتاكوس عند الطاحون.. إنه بشع الهيئة كالمارد وكان يضع طفلًا رضيعًا في ذبابة رمحه ويرفعه في الهواء.

كل ذلك وصل إلى آذان سبارتاكوس، بيد أن النصر الأول لم يسكره، لعلمه بأن الموقعة الأُولى لا تُحدد مصيرًا ومع جنود من الدرجة الثانية أتخمهم الطعام وأفسدتهم الراحة في ذلك المُعسكر الريفي، ومع ذلك فقد سره زوال الرهبة من نفوس قومه حينما صمدوا لفرقة مُسلحة.. وهزموها مرتين.. أما بالنسبة لروما والعالم الخارجي.. فقد أخرجت الأرض أثقالها وهاجت الدنيا وماجت.. ولقد جرأ الكلب أخيرًا على نهش جسم سيده!

وكانت موهبة سبارتاكوس تتركز في سيطرته على تلك الأفواج التي انضمت إليه من العبيد.. كان يدعوهم بإشارة منه، فيسرعون إليه طائعين.. كانوا يُقدسونه كالآلهة بعد ساعات قليلة من توليه القيادة.. مع حب عميق وفخر شديد يستمعون إلى كلماته في احترام وتقدير.. كلهم سواء وكلهم رجل واحد يتمتع بإنسانيته المفقودة، وكرامته التي

أهدرها الطُغاة.

وعلى قيد خمسة أميال جنوبي كابوا اجتمع المُصارعون ومن لحق بهم من النساء والعبيد فوق قمة أحد التلال على مرأى من مزرعة كبيرة لأن السادة الرومان.. وكان الوقت ظهرًا.. وأصبح لسبارتاكوس فرقة مُنظمة يكاد الإنسان أن يحسبها فرقة رومانية لولا وجود بعض السود بها –كاملة الدروع والخوذات والأسلحة التي انتزعوها من الجنود القتلى.. ولم يعد أحد فيهم لا يحمل سلاحًا، ثلاثة مجموعات من الغاليين والإفريقيين والتراسيين. مجموعهم مائتان وخمسون رجلًا – و على كل مجموعة قائد قسمها إلى صفوف، كل صف مُكون من عشرة رجال – نقلًا عن النظام الذي شاهدوه في الجيش الروماني.

وكان سبارتاكوس دائمًا في المقدمة وبجواره فارينا.. فلقد اختارته من وقت مضى حبيبًا وزوجًا وهي التي اكتشفت فيه البطولة والشهامة قبل أن يظهر للوجود، وكانت تبتسم كلما التفت إليها في فخر وحب واعتزاز.

وقف سبارتاكوس وسطهم وقد جثت فارينا عند قدميه تسند رأسها إلى ساقه القوية.. وقال:

– نحن الآن أُسرة واحدة.. نتساوى في الحقوق والواجبات.. نحن الآن أحرارًا.. فمن تختارون زعيمًا لكم؟ إني احترم رأي إخواننا الغاليين وكذلك إخواننا الإفريقيين، ومن شاء منكم أن يتكلم فليقف. وأنا على أتم استعداد لأن أسير خلفه جُنديًا من جنوده.

وحينه جماعة الإفريقيين يرفع أكفهم وضمها أمام وجوههم.. ولم يقف مخلوق.

وهتف جانيكوس: مرحبًا أيها المُصارع!

ووقف رجل كان يُصارع الموت.. وقف مُترنحًا بعد أن كان يستلقى فوق العشب، وذراعه مقطوعة إثر ضربة سيف قوية والدماء تنزف منها بغزارة رغم الرباط القوي حولها: وكان غاليًا شُجاعًا.. وتقدم إلى سبارتاكوس الذي مد ذراعه إليه ليستند عليها.. ووجه

خطابه إلى المُصارعين قائلًا:

– لست أخشى الموت يا رفاق، بل إني أُرحب به الآن بعد أن صرت حرًا.. إني أُفضل الموت في ركاب هذا الرجل، خيرًا من ميتة الكلاب التي كان يعدها لنا باتياتوس – وكنت أود أن أتبع هذا البطل التراسي ولو قادنا إلى الجحيم.. إن التراسيين يدعونه أباهم – ونحن الغاليين لسنا أقل تقديرًا منهم، وتذكروني أينما حللتم وأُوصيكم أن تطيعوه طاعة عمياء حتى الموت – هذه وصيتي لكم لا تنسوها!

وسقط على الأرض .. بين بكاء المصارعين .. أولئك الذين ظن الناس أنهم فقدوا إنسانيتهم وتحجرت قلوبهم!

وعاد سبارتاكوس يسال رجاله: هل تشيرون علي بما نفعله الآن؟

وقال أحدهم: هل نستطيع الهرب؟

فأجابة كريكسوس: وإلى أين نهرب .. كل الأرض سواء .. سيد وعبد ..

وعندئذ قال سبارتاكوس: لن نهرب أبدًا .. بل سننتقل من مزرعة لأخرى ومن قصر لآخر تطلق سراح إخواننا ونخلصهم من الذل والعار ونضيف إلينا المئات من الشباب الأصحاء، ولسوف يبعثون وراءنا الجيش وسنحاربه ونهزمه بقوة عزيمتنا وستقرر الآلهة تعد من منا له الحق في النصر .. نحن أم هم:

– ومن أين لنا بالسلاح؟

– سننتزعه من بين أيدي أعدائنا، وسنصنعه بسواعدنا أيضًا.

– إذًا، ستعلن روما الحرب علينا ..

– وعندئذ نعلن نحن الحرب عليها .. سوف نقضي على روما أيها الرفاق ونخلق عالمًا يقدس حرية الرفد!

وكان ذلك حلمًا بعيد المنال .. بيد أنهم آمنوا به .. فما دام سبارتاكوس هو الذي

سيقودهم للقتال ضد الآلهة نفسه، فلابد وأنهم منتصرون!

واستطرد يقول في هدوء مخاطبًا كل فرد:

– سنكون أسرة مثالية هدفها خير المجموع، ولن نفعل كما يفعل الرومان، ولن نطيع قانونهم، بل سوف نضع قانونا بأنفسنا..

– وما ذاك؟

– إنه قانون بسيط يحقق العدالة، لن نسمح بالأنانية تتدخل وتفسد قلوبنا، كلنا من أجل الجموع، ولن يملك أي شخص فينا غير ثيابه وسلاحه.. هكذا عاش الإنسان الأول عصور السلام والأمان ..

فقال تراسي:

– إن أمامنا من الخيرات والثروة ما يجعلنا جميعًا اغنياء وفي بحبوحة ورغد من العيش فلم الحرمان؟

فقال سبارتاكوس: إذًا ضعوا قانونكم كما تشاءون ..

وكان من بينهم جشعون يحلمون بالذهب النضار الذي يستحم فيه الرومان، وكان منهم من يحلم بأن يجعل الرومان عبيدًا وارقاء وهو سيدهم .. فمضوا يتناقشون ويتجادلون .. ولكن سبارتاكوس كان قد قرر ذلك ولا معارض له .. وأضاف قائلًا:

– ولن تغتصب النساء إلا إذا كانت زوجتك .. ولن يكون لأي فرد منا سوى امرأة واحدة .. يعاملها بمعروف أو يتركها بإحسان.

كان قانونهم بسيطًا .. وافقوا عليه سريعًا وبلا تردد ..

ثم انطلقوا إلى المزرعة وعسكروا في قصرها المنيف .. الذي هرب منه أصحابه الرومانيون إلى كابرا .. ولم يبق به إلا العبيد.

وحينما شاهد سكان كابرا أول قصر تشتعل فيه النيران – لأن صاحبه رفض أن يخلي سبيل ما لديه من الأرقاء .. وحاول استعمال العنف والمقاومة .. أدركوا أن الأمر جد وليس فيه هزل .. وبدا أغلبهم يرضخ بسهولة .. في الوقت الذي انطلق فيه رسول على جناح السرعة يبلغ الأمر لروما .. وكلهم أملٌ – في أن الأمر كله سينتهي في أيام قليلة – على يد الجيش الروماني العتيد الذي سيلقي على العبيد في كل مكان درسًا لن ينسوه ..

وكان أحد كبار الإقطاعيين قد أنذر بأن يجمع ما لديه من الرقيق وهم سبعمائة من الجواري والعبيد، ويتركهم ليعيشوا في مكان آمن .. وهو – بطبيعة الحال – حيث يوجد إخوانهم بقيادة سبارتاكوس .. لكنه أبى واستكبر، وسب الرسول وأمر بجلده .. وما هي إلا غمضة عين حتى ذبحه عبيده في الحال كما ذبحوا زوجته وابنته وزوجها ثم أطلقوا في البيت جميعه النيران .. وعلم سبارتاكوس بذلك، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا رغم بشاعة الحادث واستنكاره الشديد له .. فلكل ثورة أخطاء .. وصاحب القصر هو الذي حصد ما زرع، وعبيده هم أنفسهم الذين ارتكبوا – وليس أحد من جنوده – انتقامًا لسوء المعاملة وقسوتها.

وارتفع عدد رفاق سبارتاكوس حتى زادوا عن الألف .. كانوا كلما مروا بمكان أسرع العبيد به للانضمام حاملين كل ما تصل إليهم من الأسلحة، حيث يتم تدريبهم على الكر والفر؛ لأن سبارتاكوس لا يترك أي شيء للمصادفات وهو بصدد مواجهة أقوى جيوش العالم نظامًا وتدريبًا وتسليحًا ..

وكان المنظر عجيبًا .. جيش سبارتاكوس وخلفه حشد كبير من النساء والأطفال يرقصون فرحًا لأنهم أحرارًا .. لن يجلدهم أو يشنقهم أحد بعد اليوم، ومعهم متاعهم وأغنامهم وأبقارهم وكنت تشاهدهم يطبخون ويغسلون ويضحكون .. خليط قريب من الغائبين واليهود واليونانيين والمصريين وكذلك أبناء تراسيا والنوبة والسودان وليبيا وفارس

وسمرقند وألمانيا وسلافيا وبلغاريا ومقدونيا وإسبانيا .. كما كان منهم أيضًا بعض الإيطاليين ممن عليهم ديون لم يستطيعوا سدادها أو لأي سبب آخر .. ومئات من أبناء القبائل والأمم الأخرى يتحدثون بمختلف اللغات واللهجات .. لا يجمع بينهم وطن ولا جنس ولا لون .. إلا معبودهم سبارتاكوس محطم القيود والأغلال.

وكان ذلك من الأسباب الهامة لبطء حركتهم، فلم يقطعوا في ذلك اليوم سوى عشرين ميلًا بعيدًا عن كابوا .. وكان عسيرًا على سبارتاكوس أن يسمح للعبد أن يترك أهله وذويه وزوجاته وأبنائه عرضة للانتقام . بالإضافة إلى مسئولية القائد في إطعام وفض مشاكل كل ذلك العدد الغفير من مختلف الأجناس والطباع.

لقد تحولت الفتاة الصغيرة في غمضة عين وصارت محيطًا خضمًا تتلاطم أمواجه، ولابد من الربان الماهر الذي يقود السفينة إلى بر الأمان .. إلى عالم جديد .. عالم نظيف يقيمه سبارتاكوس على أنقاض روما المنحلة .. عالم يدين بالعدالة والحرية.

القسم الخامس

وكان جراكوس أول من استيقظ من ضيوف فيلا سالاريا، فخرج إلى الشرفة الجميلة يستنشق نسيم الصباح العليل وقد وضع يديه وأصابعه المحلاة بالخواتم الذهبية الثمينة فوق صدره، متشحًا – شأن شيوخ روما في ذلك العهد – بعباءة بيضاء فضفاضة ألقى طرفها الطويل على كتفه .. وكان بادي السرور وافر الثقة في نفسه وهو يخطر بجسمه البدين، وأذناه تلمعان بقرطين كبيرين من الذهب يتحركان كلما تحرك رأسه الضخم المتوج بقلنسوة صغيرة من الحرير، والمطر يفوح من بين أعطافه.

كان سعيدًا بزي الشيوخ الذي يميزه عن باقي الشعب والذي يسمح له بالجلوس في صف النبلاء، رغم أنه لم ينحدر من أصلابهم، ونقاء دمه أمر هو موضع شك .. كنه وقد أمضى ستة وثلاثين عامًا من عمره الذي تجاوز السادسة والخمسين .. في شئون الحكم وسياسة الدولة، اكتسب مكانة اجتماعية قد يتوق إليها عدد كبير من ذوي الحسب والنسب .. حتى أعداءه ومنافسيه كانوا ينظروا إليه في تقدير واحترام ..

وإنه ليذكر كيف كان يجلس في مجلس الشيوخ برم أقبل الرسول بنبأ ذلك التمرد الذي حدث من بعض عبيد باتياتوس . وإذا بالمجلس ينقلب سوقًا أو حمامًا .. ودب الرعب والفزع في نفوس أعضائه جميعًا كأنما قد انقلبت الدنيا رأسًا على عقب .. فوقف من مكانه وتوسط القاعة الفسيحة ورفع ذيل ثوبه فألقاه على كتفه في حركة قوية .. ثم صاح فيهم بصوته الجمهوري:

– أيها السادة .. أيها السادة .. إنكم لتنسون أنفسكم!

فلما توقفوا عن الصخب والكلام واتجهت جميع أبصارهم إليه استطرد قائلًا:

– إن من يشاهدكم يعتقد أن البرابرة قد غزوا روما .. ما هذا الخوف والفزع الذي لا يليق بمن يملكون زمام أقوى جيوش العالم؟ أكل هذه الجعجعة من أجل حفنة من العبيد المتمردين .. أين ذهبت كرامتنا إذا مار هزتنا تلك الزوبعة البسيطة؟

ثم تركهم وخرج إلى بيته غاضبًا .. وهو يلعن نفسه لسلاطة لسانه التي دفعته دون أن يشعر لإهانة زملائه وفيهم من هو أرفع شأنًا وأعظم خطرًا!! ولكن بعد أن استقر في بيته أبلغته خادمته بأن بعض السادة يريدون مقابلته، فدعاهم للدخول ورحب لهم .. وكانوا خمسة من أعضاء الشيوخ، قدموا لاستشارته وإزالة سوء التفاهم الذي يوشك أن يولد انقسامًا لا داعي له .. وبادروه قائلين وهم يتصنعون الغضب:

– ما هذا الذي فعلته يا جراكوس .. أتصمت دهرًا ثم تنطق كفرًا؟ أبعد هذه العشرة الطويلة تشتمنا؟

– أيها السادة .. لست أجد ما يكفي من العبارات التي أعبر بها عن شديد أسفي واعتذاري عما بدر مني..

– بل إنك لقوى الحجة طلق اللسان يا جراكوس .. ولكننا لم نأت لذلك ..

ولما جلسوا .. تحدث القنصل كاسبيوس قائلًا:

– ألا ترى أن حركة العصيان في كابوا قد تجر وراءها شرًا مستطيرًا؟

– معذرة ولكني لا أوافقك على ذلك.

– مع اعتبار ما لقيناه من عناء في ثورات العبيد السابقة؟

– وماذا تعرفون عن هذه الحركة؟ كم من العبيد انضموا لها؟

ومن هم وأين ذهبوا وما مدى قلقكم وخوفكم؟

وبدا كابسيوس يجيب عن تلك الأسئلة واحدًا واحدًا ..

– كانت المعلومات الأولى تقتصر على سبعين مصارعًا .. ثم ارتفع الرقم إلى مائتين

من التراسين والغاليين والإفريقيين وبعد ذلك علمنا أن العدد قد تضاعف عدة مرات .. كذلك حدثت قلاقل في المزارع، والأمن مضطرب للغابة ..

أما أين ذهبوا .. فاعتقادنا أنهم يتحركون اتجاه جبل فيزوف فقال جراكوس غاضبًا:

– وأين كانت قواتنا في كابرا .. ولماذا لم تسرع في الانتقال فتقضي على الفتنة في مهدها؟

فرمق كابسيوس زميله جراكوس في برود وقال:

– وهل لدينا إلا كتيبة واحدة في كابوا؟

– كتيبة واحدة؟ وكم كتيبة نحتاج إليها للقضاء على شرذمة من المتمردين العرايا؟

– أنت تعرف مثلنا ما يمكن أن يكون قد حدث هناك.

– بل أنا أعرف أن قائد المعسكر يملأ جيوبه من كل صاحب مدرسة أو معهد للمصارعة في تلك المنطقة، فهو يبعث لأحدهم أربعين جنديًا .. ولغيره ذلك العدد .. فكم يتبقى له في المدينة بعد ذلك؟

– إن مجموع قوته العاملة فعلًا مائتان وخمسون ولا داعي للبحث عن المتاعب يا جراكوس، ولنواجه الحقيقة بشجاعة .. إن جنوده قد اندحروا وهذا ما يسبب قلقنا . ومن رأينا أن نبعث لهم بالكتائب التي تحرس روما فورًا ..

– وكم عددهم؟

– ست كتائب .. على الأقل ستة آلاف جندي.

– متى؟

– حالًا.

فهز جراكوس رأسه وقال معارضًا كعادته:

– لا تفعلوا ذلك، أجل ولا تندهشوا .. فأنا قليل الثقة بكتائب حرس المدينة .. اتركوا العبيد لفترة من الوقت وسوف يدب الشقاق سريعًا بينهم .. وسيأكل الثعبان أبناءه .. لا ترسلوا حرس المدينة ..

– ومن الذي سيقوم بإخماد الثورة إذن؟

– استدعوا أحد الفيالق المحاربة من الخارج..

أمن إسبانيا؟ حيث يحتاج إليها بومبي؟

ليذهب بومبي إلى الجحيم.. على أي حال.. هاتوا فيلق من الغال.. ولا تبالوا كثيرا فما هم إلا عبيد عديمو الأهمية.. ما لم نجعل "من الحبة قبة!"

–٢–

كان جراكوس يستعيد تلك الذكريات التي عاودته بالرغم منه، وهو يجلس في مقعد وثير في الشرفة الواسعة الجميلة بفيلاسالاريا.. وكانت ثورة العبيد قد أخمدت وانتهى قائدها الذي دوخ الفيالق الرومانية، لكن ذكراه كانت كالكابوس.. لم يمح من نفوس أعدائه.. ففي كل بيت وعلى كل مائدة كان يفرض نفسه على المجالس فرضا فيتحدث عنه كل إنسان، ويتردد اسمه على كل لسان.

وفي ذلك الصباح، أحاطوا بجراكوس فهو الوحيد الذي يرتدي زي الشيوخ الأبيض وكانوا يسألونه عن تطورات الحروب في اليونان وغيرها.. وقال شيشيرو:

إن ما يزعمونه عن عراقة ذلك الشعب الإغريقي وأصالته.. لهو وهم وخرافة.. فقد سبقهم إليها المصريون بآلاف السنين حضارة ومدنية.. وما صنعه المصريون من التماثيل وما خلفوه من الآثار.. فهو أضعاف ما صنعته اليونان!

وعارضه انطونيوس كابوس قائلا:

إن تماثيل الإغريق آية في الروعة والإتقان ورخيصة الثمن أيضا.. إني أعشقها وزينت

بها قصري وحديقتي.. وأنتم ترون ما تضفيه على المكان من بهجة وجمال..

فقال شيشيروا ساخرا:

خسارة كبرى لأنك لم تشتر تمثالي سبارتاكوس قبل أن يعدمهما كراكوس..

فهتفت هيلينا متعجبة!

وي! أكان لسبارتاكوس تمثالان؟

فأجابها كراكوس:

عجبا لذلك العبد.. إنه يجرنا للحديث عنه دائما.. أجل كان ثمة تمثالان وقد حطمتهما..

وأضاف شيشيرو:

إذا لم تخني الذاكرة. فهنا صديقنا جراكوس الذي وقع قرار الإعدام..

فأجابه جراكوس:

لم تخنك ذاكرتك من قبل أيها الشاب! نعم أنا الذي أمرت بذلك حقا.. حينما بلغت بأن سبارتاكوس قد أقام تمثالين فوق المنحدر الشرقي لفرسوفياس.. ولم أرهما شخصيا.

وسألته هيلينا:

وكيف طاوعك قلبك!

عجبا.. هل نترك القذارة تزكم أنوفنا حتى لو تراكمت وصارت جبلا؟

وسألته كلوديا:

وكيف كانا؟

فهز جراكوس كتفيه وقال:

سلي كراسوس يا عزيزتي..

وعندئذ أجابها كراسوس:

لست خبيرًا في فن النحت ومع ذلك فسوف أحاول وصفهما.. أولهما تمثال لعبد طوله خمسون قدما وقف منتصبًا شامخًا بأنفه باعدا بين ساقيه منتفخا حتى تحطمت السلاسل حول صدره، فبدت معلقة مهشمة بجانبه، وكان يحتضن طفلًا بإحدى ذراعيه، بينما يشهر في يده الأخرى سيفا طويلا.. ولا أنكر أنه كان جيد الصنع معبرا في جملته بقدر معلوماتي في الفن، وكانت تقاطيع الرجل والطفل دقيقة كما لو كانا على قيد الحياة. وأذكر أن زميلي جاليوس قد أشار لي كيف برزت العروق وانتفخت العضلات في الذراعين والساقين، ولا تعجبوا من ذلك فقد كان بين العبيد بعض اليونان ربما كانوا على دراية بالنحت..

أما التمثال الثاني. فهو أقل ارتفاعا. ولم يكن أقل منه جمالا. وكان يمثل ثلاثة من المصارعين – تراسى وغالي وافريقي – يتميز كل منهم بملامحه المعروفة. والإفريقي دون رفاقه صنعوه من الحجر الأسود اللامع متوسطا زميليه ويمتاز عنهما بطول قامته، وكان يمسك بيديه صولجان نبتون "إله البحر" بينما حمل التراسي خنجرا مقوسا والغول سيفا طويلا. وكان واضحا أن الثلاثة عائدون لتوهم من معركة دامية، فمعالم الجروح والقطوع بادية في أجسامهم. هذا وقد وقفت خلفهم امرأة شامخة بأنفها لها ملامح الألمانيات عقصت شعرها للخلف وبرز صدرها الجميل للأمام ويبدو من تحت ثوبها القصير جسما فاتنا رشيق القوام.. وكانت تحمل معولا في يمناها، وفي يسراها ملعقة للبناء.. وأقول لكم الحق أني لم أفهم القصد من ذلك..

وهتفت هيلينا:

إنها فارينا!. ولكن ما ذنب التماثيل حتى تحكموا بإعدامها؟

فقال جراكوس:

وهل أتركها حتى تعرف الأجيال القادمة.. ما فعل عبيدنا؟

وأضاف كراكوس:

كان علي أن أطيع الأمر بوصفي جنديا، ومع ذلك فلو ترك لي الخيار لمحوت كل أثر لسبارتاكوس ومن تبعه من الشياطين.. حتى لا يذكر أحفادنا ما لحقنا ولحق روما من الهوان!

-٣-

وقرر مجلس الشيوخ أن تقوم ست كتائب من الحرس إلى كابوا لإخماد الفتنة. وهو القرار الذي عارضه جراكوس بشدة ومع ذلك لم يستمع إليه أحد.. كل كتيبة تتألف من خمسمائة وستين جنديا مجهزة بعتاد أغلى وأجود من تلك الأسلحة التي تحملها الفيالق الرومانية في الخارج.. وكان البون شاسعا بين الحياة الناعمة التي يعيشها جندي الحرس ورفيقه الذي يحارب خارج الجمهورية والذي يذهب إلى اطراف الأرض مغتربا ما بين خمسة وعشرة أعوام، وقلما يعود إلى وطنه، بل لا يعرف في أي أرض يموت، يواصل السير طول النهار على حفنة من الطعام. يكد ويعرق ويشقى في تشييد الطرق وقهر الجيوش وإقامة المدن في الصحاري وفوق الجبال. بينما جندي الحرس يرتدي دواما ثيابا زاهية جميلة، حياته عابثة كلها خمر وميسر ونساء، له قوة سياسية مرهوبة. يلمع الذهب الأصفر بين راحتيه، وكان معظمهم يستأجر طوابق روما الفارهة ويحوز ما لا يقل عن ست من الجواري. ومما يروي عن أحدهم أن بيته كان ممتلئا بالجواري من كل جنس اللاتي كن مصدر ربح كبير له. حيث كان يتجر فيمن ينجبن من الأطفال – وهم بين الثالثة والسادسة – ببيعهم في أسواق الرقيق.. وقصص أخرى كثيرة مماثلة.

وكان على رأسهم ضباط حديثو السن كلهم من أبناء السراة والنبلاء يهز المرح أعطافهم حين يختالون أمام النساء بشرائطهم الزاهية ونجومهم اللامعة فوق صهوات جيادهم الرشيقة. وكان لكل كتيبة لون مميز من الثياب والأعلام مرسومة على دروع

الضباط الذهبية أو الفضية، وعلى دروع الجنود النحاسية.. وكان منظرهم رائعا حينما يصطفون في الاحتفالات أمام السفراء ومندوبي الملوك.. مما كان فخر روما وقتئذ.

ولا أعني بذلك أن جنود الحرس كانوا عديمي الدراية بفنون القتال فقد كانت لهم طوابير يومية وشاقة في بعض الأحيان، لكن الذي أعنيه أنهم قلما يشتركون في معركة هامة – ولولا أن المسألة كانت عبارة عن قمع فتنة عبيد لا أكثر ولا أقل – لما حملوا عبئها.

وانطلقت الكتائب الست قبل بزوغ فجر اليوم التالي لصدور ذلك القرار وعلى رأسهم أحد أعضاء الشيوخ وهو شاب يدعى "فارينوس جلابروس" كلفه المجلس بتلك المهمة لسبب واحد.. هو سابقة حدوث انشقاقات وخلافات بين بعض أعضاء المجلس، والخوف من تسليم قيادة الحرس – وهو قوة مسلحة لها خطورتها في الميزان السياسي – إلى شخص – حتى ولو كان قائدا محنكا – قد يحدث بها انقلابا، فلابد أن يلي القيادة شخص معروف بميوله موثوق به من الأعضاء.

وكان فارينوس في التاسعة والثلاثين متصل عن طريق والدته بعدد كبير من الأسر المعروفة، به طموح وغرور وقد قبل المهمة ليكسب صيتا لم ينله في غزوة أو معركة هامة، ربما ساعده ذلك في الانتخابات القادمة.

وكانت لديه تعليمات دقيقة لا يحيد عنها قيد أنملة، فعليه أن يسلك مع قواته الطريق الأبياني المرصوف حتى كابوا بسرعة الطوارئ أي عشرين ميلا كل يوم، حتى تحمل العربات والناقلات كل ما يلزم لجنوده من طعام وشراب ولا ينوءون هم بحمله فوق ظهورهم.. ويعسكر خارج أسوار المدينة يوما واحدا فقط حيث يتلقى المعلومات اللازمة من حاكمها عن سير الأمور وتطورات فتنة العبيد ومكان تحركهم، ويبعث لروما بتقرير كامل عن ذلك، دون أن يعوقه ذلك التحرك فورا لمواجهة الموقف. وتركوا له حرية الطريقة التي يراها ملائمة لإخماد الثورة على أن يعمل جهده في أسر زعمائها. ومن يستطيع من المشتركين فيها أحياء لتحاكمهم روما وتقتص منهم. وإذا شاء فله أن يصلب عشرة من العبيد على أبواب كابوا، بشرط ألا يزيدوا عن نصف عدد الأسرى.. وكل

حقوق مدنية تخص مالكي هؤلاء المشتركين في الفتنة، أصبحت من حق الدولة. فلا تقبل أي دعوى أمام محكمة ما دامت تتعلق بتلك الحقوق.

وكان ذلك – قبل أن تصل روما – أية معلومات عن قائد الثورة، ولم يكن اسم سبارتاكوس قد عرفة وقتئذ!

واحتشد جمع كبير من أهالي روما يشاهدون الكتائب الست ومجموعها أكثر من ثلاثة آلاف وتسعمائة جندي مسلح، وهي تخرج من أبواب المدينة ترمقها العيون.. ومن بينها أنظار جراكوس وعدد من الشيخ، على دقات الطبول وأنغام الموسيقى والبيارق الملونة، وكان يتقدم كل كتيبة حملة أعلامها.. خلف فارينوس جلابروس القائد العام تلمع خوذته ودروعه وهو على متن جواد أبيض يلوح بيديه للجموع التي كانت تحييه.

– ٤ –

ثم سمع مجلس الشيوخ اسم سبارتاكوس.. وأن جراكوس ليذكر تماما أول مرة ذكر فيها ذلك الاسم أمامه في روما وفي أهم مكان بها.. علانية وجهرا.. ذلك حينما قام رئيس المجلس بتلاوة أول وآخر تقرير وصله من القائد فارينوس جلابروس.. وقد بدأه بالمقدمة التقليدية "أتشرف بأن أنهي إلى مسامع حضرات الشيوخ الموقرين" ثم قرر فيه أن هجوما مريعا قد حدث على قواته في الطريق.. أسفر عن إبادة ثلاث كتائب كاملة.. أضطر أن يترك جثتهم دون أن يتمكن من حفر قبوا لهم.. كما لم تبق من العربات التي كانت فوق المائتي عربة سوى واحدة حملت ما تبقى من أسلحة، واضطر لترك فرقة رابعة في كابوا لعدم استطاعتهم العودة بسبب الإصابات الأليمة فيهم.. أما الباقون فهم في الطريق عائدون.. بهم إصابات جسيمة حقا.. ولكنها قابلة للشفاء بحيث يمكن استخدامهم في حملة قادمة.. "وابتسم جراكوس حينما سمع كلمة حملة قادمة، وأضاف القائد.. أنه علم من باتياتوس – بصفة شخصية – أن زعيم الفتنة أحد المصارعين ويدعي سيارتاكوس، يعاونه مصارع غالي يدعى سيكسوس. كما علم بأنه قد دمرت ثلاث مزارع كبيرة بعد أن أشعلت فيها النار.. وأن الرقيق فيها كانوا موالين مخلصين لسادتهم لولا

اضطرارهم تحت التهديد والإرهاب، فانضموا إلى الثورة. أما أولئك الذين رفضوا فقد ذبحوا جميعا.. (وهز جراكوس رأسه في رضاء) وأضاف فلرينوس أن العبيد يعسكرون الآن على منحدر جبل فيزوف.

ومن الغريب أن أحدا ما لم يسمع بعد ذلك أو يعلم شيئا عن مصير فارينوس أو أولئك (الباقون الذين هم في الطريق عائدون). أكبر الظن أنهم أبيدوا عن آخرهم في هجوم لاحق .

-٥-

عقد أعضاء مجلس الشيوخ اجتماعا طويلا بعد أن أوصدوا جميع أبواب المجلس، وامتلأ الميدان الكبير بالجمهور.. فلم يعد هناك موضع حتى لقدم طفل.. ولم يتخلف عن ذلك الاجتماع سوى شيخين.. وكان كبير السن منهم مُحتفظًا بوقاره التقليدي – والذي سبق أن نبه إليه جراكوس في جلسة سابقة – أما الشباب منهم فكانوا كلهم غضب وحماس.

وجلس جراكوس يدير بصره في الحاضرين.. كان يعلم أن أغلبهم تافه التفكير قليل الخبرة، لم يصل إلى مقعده إلا بالوسائل غير المشروعة والأساليب الملتوية. وكان يعرف أسرارهم جميعا وما يخفون تحت أثوابهم الرسمية البيضاء من خسة وقذارة.. وبالرغم من أن الظرف لم يكن مناسبا حتى يفخر جراكوس بصواب آرائه وبعد نظره. إلا أن ذلك لم يعد أمرا خافيا لدى زملائه، فجعلوه مشرفا على التحقيق الذي كان يجريه المجلس مع الجندي الروماني الذي تمكن من الهرب والعودة ليقص على كبار رجال الحل والربط في روما وقائع تلك الهزيمة المنكرة.

وكان الجندي المذكور من عامة الشعب ولأول مرة في حياته يقف أمام تلك الهيئة الموقرة بوجهه الرفيع.. فلا غرو أن شعر بالخشية والرهبة فبدا قلقا يلعق شفتيه بين الحين وآخر وهو متصلب في وقفته مجرد من سلاحه (لأنه داخل مجلس الشيوخ) وإحدى ذراعيه معلقة في رقبته بعضادة تعلوها الدماء.. وكان التعب والإرهاق واضحين في وجهه،

فأمر جراكوس – لدهشة زملائه – بإحضار مقعد وكأس من النبيذ، وذلك قبل أن يبدأ باستجوابه..

وكان الجندي يحمل بين يديه عصا القيادة التي يمنحها مجلس الشيوخ لكل قائد من قواد الجيش. والتي تعبر عن سلطة الحكومة – والمفروض فيها أنها وحدها – كافية بأن تحدث الرهبة في نفوس كل من تسول لهم أنفسهم عصيان روما!

وبدأ جراكوس بأن طلب من الجندي أن يعطيها له..

ولم يفهم الجندي ذلك في أول الأمر، فأخذها جراكوس من بين يديه في رقة ووضعها بهدوء على المنضدة، ولم يتمالك وهو يفعل ذلك أن شعر بغصة في حلقة، وألم حاد يمزق قلبه.. هذه هي العصا التي تمثل القوة والكرامة والتي امتلأت نفس القائد فارينوس غبطة وسعادة وكبرياء وهو يتسلمها من أيام قلائل مضت..

وسأل جراكوس الجندي:

أولا.. ما اسمك؟

أرالوس بورتوس.

ووضع أحد الأعضاء يديه حول أذنيه وصاح:

لم أسمع اسمه تماما.. لماذا لا يجيب بصوت مرتفع؟

وقال جراكوس للجندي مشجعا:

تجلد وارفع صوتك.. فنحن هنا لا نأكل أحدا.. أنت الآن في قاعة الشيوخ ولن ينالك أذى ما دمت ستقرر الحقيقة.. والحقيقة وحدها..

وأومأ الجندي برأسه:

تناول بعض النبيذ..

وأدار الجندي بصره فيهم.. صف طويل من الوجوه الصارمة والثياب البيض يجلسون على مقاعد حجرية. وكأنه يمر في طريق الأكباش بمصر.. وبيد مرتعدة رفع كأسه

بعد أن ملأها حتى الثمالة ثم أفرغها في جوفه.. ومسح شفتيه بلسانه..

وسأله جراكوس:

وما عمرك؟

خمسة وعشرون عاما.

وأين ولدت؟

هنا في الحي الشعبي بروما..

وما صناعتك.. أقصد قبل الجندية؟

فهز الجندي رأسه.. لم تكن له صناعة..

أريدك أن تجيب عن أسئلتي.. على الأقل بنعم أو لا، وإذا أمكنك أن تضيف شيئا فلا بأس..

فقال الجندي:

لا صناعة لي سوى الحرب.

وفي أي كتيبة كنت؟

الكتيبة الثالثة..

وكم أمضيت في هذه الكتيبة؟

عامين وشهرين..

وقبل ذلك؟

كنت في معسكر التدريب..

ومن كان قائدك في الكتيبة الثالثة؟

سلفيوس كايوس سلفاريوس...

وقائد المائة؟

ماريوس جراكوس الفيوس..

حسنا يا أرالوس بورتوس.. هل تقص على هؤلاء الشيوخ المحترمين ما حدث عقب أن خرجت كتيبتك ومعها خمس كتائب أخرى إلى جنوب كابوا؟

وبدأ أرالوس يحكي – وقد أطلقت الخمر لسانه قليلا – كيف انطلقوا فجر ذلك اليوم تحت رياسة فارينوس جلابرلوس، وسقطت عليهم الشمس وكان الجو شديد الحرارة والجنود غير معتادين على السير الطويل، وبالرغم من أنهم كانوا يحملون أقل مما يحمله جندي الفيالق بعشرين رطلا، ومع ذلك فقد كانوا يسيرون مرتدين ذروعهم وخوذاتهم الثقيلة ومتقلدين حرابهم وسيوفهم.. وتبين أن الأحذية الرقيقة الثمينة التي يلبسونها لا تلائم السير الطويل فوق الرمال والحجارة، وإن كانت مناسبة للتمخطر في ميدان ماكسيموس ومسارحها. وقبيل العصر تغير الجو وأمطرت السماء مدرارا حتى ووصلت المياه إلى جلودهم.. فضاعف ذلك من ضيقهم وعذابهم. وفي الطريق شاهدوا أربعة من العبيد – ثلاثة رجال وسيدة – فقتلوهم..

فقاطعه جراكوس:

ولماذا قتلتموهم؟

الشعور كان معبأ ضد كل العبيد.. ألم نأت لنحاربهم؟

ولماذا يهبطون من التلال ويقفون لكم في الطريق، لو كانوا يريدون بكم شرا؟

لست أدري.. الكتيبة الثانية هي التي فعلت ذلك.. خرجوا من الطابور وأمسكوا بالمرأة.. فحاول الرجال الثلاثة منعهم فقتلوهم بالحراب.. مات الرجال الثلاثة في دقيقة وقبل أن أصل لهم..

وقال جراكوس:

إذن فقد خرجت كتيبتك أنت أيضا من الطابور؟

نعم يا سيدي.. التفت الكتائب كلها حولهم.. أقصد من كان قريبا من ذلك المكان،

لتشاهد ما حدث.. وخلعوا عن المرأة ثيابها وطرحوها على ظهرها عارية.

فقاطعه جراكوس:

– حسنا.. اترك التفصيلات جانبا.. وماذا فعل ضباطكم؟

لا شيء يا سيدي..

أتعنى أنهم لم يمنعوا الجنود؟

وصمت الجندي لا يجيب..

أجب بصراحة.. ولا تخش أن تقول الحق والصدق..

ضباطنا لم يتدخلوا..

وكيف قتلت المرأة؟

بسبب ما حدث لها من الجنود..

واستطرد الجندي يقول:

أنهم توقفوا للمبيت عندما خيم الليل، وكان الطقس حارا فباتوا في العراء..

وسأله جراكوس:

ألم يأمر القائد ببناء معسكر للمبيت.. معسكر مقفول حوله الحراسة اللازمة؟

فهز الجندي رأسه وقال:

سمعت أن فارينوس جلابرلوس أمر بذلك، ولكن قواد الكتائب اعترضوا، وقالوا أن الحملة لا تضم مهندسين، كذلك أنهم لا يحاربون جيشا منظما، بل حفنة قذرة من العبيد. معذرة يا سيدي..

لا تخش شيئا.. استمر.

وسمعت الضباط يقولون.. لو أن فارينوس كان يريد بناء معسكر.. لماذا يدفعنا للمسير حتى الغروب؟ وكانت المرحلة التي قطعناها أسوأ المراحل جميعها.. في بادئ

الأمر.. الطريق حار ومترب حتى لم نكن نستطيع التنفس.. ثم المطر الشديد، ولم يكن هناك بأس بالنسبة للضباط الذين كانوا يمتطون جيادهم.. ولكننا يا سيدي كنا نخلع قدما من التربة الناعمة العميقة أو من الوحل الكثيف.. لنخلع الأخرى في مشقة بالغة..

وأين كنتم وقتذاك؟

بجوار الجبل..

واكتملت الصورة في ذهن جراكوس، إنه يعرف ذلك الطريق الفرعي الملاصق للجبال، حيث تنتشر المزارع تحت أقدام جبل فيزوف الشامخ.. أربعة آلاف جندي منتشرون في الطريق الضيق.. وهم منهوكو القوى يكادون أن يسقطوا من الإرهاق والتعب، فنام أغلبهم حيث وطئت أقدامهم كالموتى.. وفي الوسط أقام فارينوس خباءه ورفع عليه علم القيادة، وشارة مجلس الشيوخ.. ولا بد أنه قد حمل معه بعض الطعام والحلوى مما أعدته له كرائم سيدات كابوا، فجلس في خيمته وحوله كبار القواد يأكلون ويشربون ويتسامرون..

ثم نمت.. وفجأة استيقظت على صوت صراخ.. وقد ظننت في أول الأمر أن أحد زملائي المجاورين يصرخ أثناء نومه، ولكني حينما تنبهت لنفسي تبين لي أن مجموعة من الناس يصرخون، وكان كاليوس ينام بجواري – وكاليوس اسمه مفردا لأنه لا يعرف من يكون أباه، وتربى شيطانيا بين أزقة روما وكنت أحبه واتخذته صديقي الوحيد – فأمسكت رأسه اهزها لأوقظه من نومه فإذا بها منفصلة عن جسده.. واكتشفت انني كنت أنام في بحيرة من الدم، ونظرت حولي فإذا بالعبيد في كل مكان على ضوء القمر يعملون بسكاكينهم وخناجرهم المشحوذة تقطيعا في رقاب الجنود.. والجثث في كل مكان.. لقد فاجأونا يا سيدي أثناء نومنا.. وإذا ما نهض أحدنا قتلوه فورا. وبالطبع حاول بعض الجنود القتال في مجموعات ولكن كان ذلك لأمد قصير جدا، وكان ذلك أبشع ما رأيت في حياتي ولم يكف العبيد عن القتل والذبح.. وعندئذ أصابتني لوثة فبدأت أصرخ أنا أيضا.. فاختطفت سيفي وانطلقت أجري وقابلني أحد العبيد فقتلته، بيد أني ما كدت أصل

لحرف الزراعة حتى فوجئت بسد من الحراب يحوط المعسكر وكان أغلب المحاصرين من النساء.. لكنهن لم يكن من الجنس الذي نعرفه، بل نوعا آخر يختلف تماما ولم أره حتى في أحلامي، نساء شعورهن تطير في الهواء وفي وجوههن مسحة شيطانية أججتها الكراهية الشديدة والتعطش للدماء، وكن يصرخن في أصوات مرعبة ترتعد لها الفرائص.. فتراجعت وكان خلفي زميل استمر في عدوه متقدما يريد منفذا من الحراب، لكنهن قضين عليه في ثوان.. حتى الجرحى لم يرحمهم أحد. وقذفتني إحداهن بحربة اخترقت ذراعي فسقطت بين مئات القتلى وأشلائهم ودمائهم.. ولا أعرف حساب الزمن ولكن بعد فترة من الوقت توقف الصراخ، وشعرت بيد ترفعني حتى وقفت على قدمي فرفعت خنجري بيدي الأخرى لأطعنه ولكنه ضربني بيده ضربة شديدة أطاحت الخنجر من يدي، وكنت في شدة الضعف بسبب ما نزف مني من الدماء.. وفي تلك اللحظة أمسك عدوي بسكين وهم بذبحي، وكان نصل السكين فوق رقبتي فعلا حينما سمعنا شخصا يصيح: انتظروا.. فتوقف السكين عن المضي في جلدي واقترب الشخص الثاني وهو يقول:

انتظروا.. أعتقد أنه الوحيد الذي بقى على قيد الحياة.. اتركوه ليروي القصة على العالم أجمع"..

وهكذا يا سيدي تركوني دون أن يفصلوا رأسي.. لأني الوحيد الذي نجا من المعركة الرهيبة..

وكيف عرفت أنك الوحيد الذي نجا من الموت؟

لقد احتجزوني تحت الحراسة حتى الفجر.. وكنت أراهم يمرون بين الجثث يخلعون عنها ثيابها العسكرية، ويجردونها من أسلحتها.. ويتأكدون من أن أحدا من جنودنا لم يلفظ آخر أنفاسه.. كما جمعوا جميع طعامنا وما في العربات من لحوم وعلب وخبز وشراب.. وحملوه كله معهم.. وكنت أرى بعض النساء يأكلن.. يأكلن طعامنا يا سيدي.

وماذا فعلوا بالقتلى؟

لا شيء.. تركوهم حيث هم.. الأرض كلها بساط من اللحم والدماء.

ومن هو ذلك الرجل الذي أمرهم بألا يذبحوك؟

كانوا ينادونه.. سبارتاكوس.. ولكن في احترام شديد..

وبدت على الشيوخ أمارات الاهتمام، ومالوا في مقاعدهم إلى الأمام وهم ينصتون..

وما شكله؟

رجل متوسط الطول والجسم.. ذكرني وجهه بوجه أحد الكباش المتوحشة، وجه لوحته الشمس، أنفه مفطوسة، عيناه سمراوتان كأنهما جمرتا فحم مشتعلتان تبعث الرهبة في النفوس. لم أخف من الآخرين ولكني خفت منه لمنظر وجهه الذي لن أنساه. وكان يرتدي سترة جندي ملوثة بالدماء ويتمنطق بخنجر دون أي سلاح آخر.. شعر رأسه مقصوص مما أوحى إليّ أنه من المصارعين التراسيين..

وكيف أدركت أنه تراسي؟

من ملامحه ولهجته.. كان يتكلم اللاتينية.. وقد قابلت يا سيدي كثيرا من أبناء تراسيا من قبل ولا أخطئهم..

وكيف حصلت على عصا القيادة التي كان يحملها فارينوس؟

لقد رأيتهم وهم يجردون قائدنا من ثيابه تماما., وحمل أحدهم سيف فارينوس الطويل ذي القبضة العاجية المزركشة.. ولمس النصل بأصابعه.. ثم ألقاه في العربة التي حملت أسلحتنا، وبعد ذلك أمسك سبارتاكوس بتلك العصا وقال لي:

أيها الروماني.. هذه هي عصا مجلس شيوخكم الموقر.. اسمع! إن اسمي سبارتاكوس.. لا تنس هذا الاسم أيها الروماني!

ثم رمقني بحدة جعلت الدماء تقف وتتجمد في عروقي وقال:

لماذا قتلتم الثلاثة رجال.. وهتكتم عرض المرأة حتى قتلتموها على تلك الصورة البشعة؟ أنهم لم يرتكبوا ذنبًا وكانوا يستمتعون بمشاهدة جنود روما وهم يسيرون.. هل هانت البشرية، وانحطت الإنسانية، وقتلت الرحمة في قلوبكم أيها الرومان؟

وحاولت أن أشرح له ما حدث.. أفهمته أني من الكتيبة الثالثة ولا ذنب لي فيما حدث.. ثم انتظرت لأعرف كيف يقررون مصيري.. وكان سبارتاكوس يجلس القرفصاء معتمدا رأسه بين ذراعيه.. والعصا في يده يمر عليها بأصابعه.. وأخيرا قال:

خذ هذه العصا أيها الروماني.. أنت الآن مفوض مجلس الشيوخ الموقر في القضاء على ثورة العبيد.. هل أنت مواطن؟

فلما أفهمته أني مواطن روماني قال:

بل أنت الآن عضو مجلس الشيوخ.. خذها إلى زملائك المحترمين.. كما سلمتها لك.. سلمها لهم.. فهي أمانه ينبغي علينا ردها.. وبعد ذلك قال لي كلاما أمرني أن أنقله إليكم.. ولكني يا سيدي..

وزاد اهتمام الشيوخ.. ومالوا للأمام في مقاعدهم أكثر..

وقال جراكوس:

استمر.. ماذا قال؟

وبعد تردد قصير قال الجندي:

امض إلى مجلس الشيوخ ومعك هذه العصا.. لقد أقمتك مندوبا مفوضا من قبلي.. قل لهم أنهم أرسلوا ست كتائب لقتلنا.. وأننا سحقناها عن آخرها.. قل لهم أننا نحن العبيد.. الآلة الناطقة كما يسموننا، سننقل لهم ما يقوله العالم فيهم.. لقد سئم العالم روما وشيوخها القذرين ونظامها البالي العفن.. سئم العالم ذلك الثراء والترف الذي يعيشون فيه على دمائنا وأشلائنا.. سئم العالم نظام السياط الذي تلهبون به ظهورنا، تلك الموسيقى التي تشنفون بها آذانكم صباح مساء.. أنكم تصادرون الحقوق والحريات وقد خلقنا جميعا من أب وأم واحدة.. واستعبدتمونا وقد ولدنا أحرارا وقسمتم البشر قسمين.. سادة وعبيدا.. ولكننا أكثر منكم عددا، بل نحن أفضل منكم مبادئ وقيما وأخلاقا.. أن نساءنا يحاربن معنا بقلوبهن ونحن نقدسهن.. أما نساؤكم فعاهرات ساقطات! وحيثما سرنا سيسير العالم من ورائنا.. ولسوف ندخل مدينتكم ونهدمها من أساسها لنقيم فيها عدلا

ومساواة وقانونا ينادي بالاشتراكية والحرية.. انقل لهم ذلك.. من العبد سبارتاكوس!.

-٦-

أشار أنطونيوس كايوس بيده إلى جراكاس الذي هبطت رأسه على صدره في اغفاءة قصيرة وقال باسما:

انظروا إلى جراكوس الشيخ..

وكانت كأس جراكوس مملوءة للحافة لم يمسها بعد..

وقالت هيلينا: لا تضحكوا على الرجل.. أنه يعيش مع الذكريات..

وفتح جراكوس عينيه وقال: أكنت نائما؟

ثم نظر إلى هيلينا وقال في أدب:

عفوا.. وأستمحيك عذرا يا سيدتي.. أنها غفوة طارئة وأحلام يقظة..

أكانت أحلاما سعيدة؟

بل أحلام قديمة.. وربما كانت آفة الإنسان عدم النسيان لقد وصلت إلى سن الشيخوخة.. وحياتي حافلة بالذكريات..

وضحك أنطونيوس وقال:

كان كراكوس يحدثنا أثناء غفوتك.

وقاطعته جوليا:

ألا تجدون مادة تتحدثون فيها خلاف سبارتاكوس. تحدثوا عن السياسة وأشياء أخرى فلقد سئمت هذا.

وهتف أنطونيوس بها: جوليا!

فصمتت وهي تبلع ريقها —كان زوجها يعاملها كطفلة شقية.

واستطرد انطونيوس يقول: إن كراسوس ضيفنا يا عزيزتي ويسعدنا أن نسمع منه ما

يزيد معلوماتنا اتساعا، وأعتقد أنه يسرك ذلك أيضا..

وأطرقت جوليا برأسها وقد احمرت أذناها ودمعت عيناها. وقال كراسوس معتذرا:

جوليا يا عزيزتي.. إذا كان حديثي مملا فأرجوك المعذرة.

فهتف انطونيوس يقول: لا.. لا.. إن جوليا يسعدها أن تسمعك.. أليس كذلك يا جوليا؟

وهمست قائلة.. طبعا.. طبعا.. أرجوك أن تستمر يا كراسوس..

وعندئذ تحول جراكوس إلى كراسوس قائلا:

أكاد أفهم منطقك يا كراسوس.. أظنك كنت تبرر لهم تلك الهزائم التي لحقت بجيوشنا بأن العبيد كانوا يبذلون أرواحهم رخيصة ويلقون بأيديهم للتهلكة قاصدين إما النصر أو الموت.. أليس كذلك؟

تماما.. تماما..

فهز جراكوس رأسه وقال: قد يكون بعض الحق معك في هذا.. ولكن روما قوية الآن لأنها عاشت وانتصرت. أما سبارتاكوس فضعيف لأنه خذل ولم يبق من رجاله إلا جثث فوق الصلبان.. ألا توافقني على ذلك؟

أجل.. لقد انتصر ذلك الشيطان علينا في خمسة مواقع، ولا أقصد تلك المواقع الأخيرة التي اشتركت أنا فيها وكان الحرب سجالا بيننا وبينه، بل أعني المواقع الخمسة التي واجه فيها الجيوش القنصلية وأبادها عن آخرها.. واستولى على أسلحتها ولسوف أقص عليك يا جوليا قصة مسلية فيها بعض السياسة والحرب.. وشيء من فارينا.. امرأة سبارتاكوس تعرفين.

نعم.. أعرف ذلك..

وقالت كلوديا: لا أصدق أنه كانت هناك امرأة بذلك الاسم لا بد أن الإشاعات قد خلقتها خلقا!

أحقا؟ لا يا عزيزتي.. إن الحقيقة قد تبدو أحيانا أغرب من الخيال.. وأنا نفسي بعد أن انفض يدي من أحد المعارك.. أعجب في نفسي مما كان.. أو مما كان سيكون..!

وسد الصمت برهة ثم استتلى كراسوس يقول:

حينما توليت أمر إخماد تلك الفتنة، كانت الحرب قد استغرقت عدة سنوات كما تعلمون. ولا يشعر أي قائد بالفخر الكبير حينما يتصدى للقضاء على فتنة محلية، وجراكوس على حق.. فلقد كان سبارتاكوس قويًا.. وفرض اسمه وشخصيته على روما وجيوشها.. وكان الأمل ضعيفا في الحيلولة بينه وبين دخول العاصمة ذاتها.. فلما توليت القيادة مضيت أبحث في المشكلة من جذورها.. فوجدت لو أن جميع عبيد الجمهورية قد انضموا لسبارتاكوس لما استغرق دخوله روما شهورا قليلة، ولما كنا الآن نجلس هذه الجلسة الممتعة الهادئة في ضيافة صديقنا انطونيوس، ولكن الحقيقة أن بعضهم فقط هو الذي انضم إليه. وأن مجموع جيشه لم يزد أبدا – في أحسن حالاته – عن أربعة وخمسين ألف رجل وامرأة.. ولم يكن معه خيالة – كما فعل هانيبال – ولو كانت هذه القوة الراجلة مع هانيبال بنفس تلك الحماسة والشجاعة لحطم روما في غمضة عين.. فلقد كان سبارتاكوس ينتقي جنوده في دقة ودراية، ولا يختار إلا الأجود والأقوى والأكثر حماسة وتضحية.. ذلك ما اكتشفته بنفسي في أول يوم وكنت أشعر بالخجل والعار وأنا أرى روما مذعورة خائفة.. كنت أريد أن أعرف من هو عدوى وممن تتكون جيوشه.. كنت أريد أن أصل للحقيقة ولماذا تحطمت أمامه أقوى جيوش الدنيا تدريبا وتسليحا.. وانني أفخر بأنني لست سطحي التفكير كغيري، فمضيت أنقب وأبحث وأجمع المعلومات من هنا وهناك.. من باتياتوس، ومن الضباط والجنود الذين اشتركوا في المعارك السابقة، وهذه القصة سمعتها من أحدهم.. وأنا أعتقد بصحتها..

فقال انطونيوس كايوس:

إذا كانت هذه القصة بطول مقدمتك.. فأرى أن نتناول غداءنا هنا..

فاستطرد كراسوس قائلا:

لا.. أنها قصيرة وأهديها إلى جوليا.. بعد استئذانك يا جوليا..

وقال جراكوس في نفسه:

– ماذا يهدف إليه هذا الشيطان؟

– وأطرقت هذه القصة في الموقعة الثانية.. بعد أن أبيدت الكتائب الست برياسة فارينوس كما تعرفون.. وعندئذ بعثنا في طلب الفيلق الثالث.. ثم أرسلناه للقتال بقيادة عضو الشيوخ بوبليوس وكان معه بعض فصائل خيالة المدينة كلهم حوالي سبعة آلاف رجل، واستمحيكم عذرا في أن أصرح بأن كثيرا ممن يحترفون الحرب والقتال أغبياء، لأسباب عدة. أما سبارتاكوس فكان ذكيا جدا.. فهم نقط القوة والضعف في الجنود الرومانية.. ولقد فعل مثله من قبل "هانيال"..

– وهل تريد أن تشرح لنا الآن نقط الضعف التي ذكرتها؟

– أنها ليست سرا.. ومن أجل جوليا سأسردها بإيجاز.. فالقاعدة الأولى ألا تقسم قواتك وتفصلها عن بعضها إلا إذا كان ذلك ضروريا جدا، والثانية أن تهاجم دائما ما دمت قد خرجت للحرب، وتتجنب الاشتباك قدر جهدك إذا لم تكن مستعدا للهجوم والثالثة أن تختار الوقت والمكان الملائمين للمعركة.. ولا تترك ذلك لعدوك.. والرابعة أن تحول دون محاصرتك من العدو.. أما الأخيرة.. فهي أن تهاجم عدوك من أضعف نقطة.

وقال شيشيرو ساخرا:

– كل كتب الجيش فيها هذه المبادئ الأولية.. ولكنك لم تحدثنا عن نقط ضعف جيشنا..

فأجاب كراسوس:

– إن نقط ضعف جنودنا تتركز في كلمة واحدة هي "النظام" فجيوشنا أدق جيوش العالم نظاما.. والنظام الصارم الدقيق يفرض على القائد والضباط إطاعة أوامر مجلس الشيوخ المكتوبة طاعة عمياء دون تفكير أو تصرف، كما أن التكتيك الذي يتلقاه الضباط والقادة في وسائل الهجوم والدفاع يكاد يكون دستورا مقدسا لا يمكن خرق

قواعده أو الخروج عن أصوله.. ولا بد أن سبارتاكوس كان يعلم ذلك يقينا فيرسم خططه وكان يقرأ خططنا في كتاب مفتوح.. وحينما تقدم بوبليوس كان سبارتاكوس لا يزال في منطقة فيزوف فقسم جيشه إلى ثلاث فرق سلكت كل منها طريقا مختلفا للبحث عن سبارتاكوس وكان ذلك من أسباب هزيمة الحملة، وقد حدث أن تمكن بعض الخيالة من اختراق الحصار الحديدي فهربت إلى الغابات وضلت طريقها – وكان عددهم أكثر من مائة – وفجأة وصلوا إلى معسكر للعبيد لم يكن به إلا النساء والأطفال.. وكان ذلك المعسكر على غرار تلك المدن المؤقتة التي تقيمها جيوشنا في الخلاء للمبيت، ميدان فسيح وطرقات بين الخيام واسعة منظمة مما يجعلني أعتقد أن بعض جنودنا قد هربوا وانضموا لسبارتاكوس ونقلوا عنا هذا النظام.. كانت البوابات مفتوحة والأطفال يلعبون تحت أنظار بعض الأمهات.. وأنتم تدركون أنه حينما ينهزم جنودنا ويشهدون التنكيل برفاقهم – يفقدون عقولهم – ولست ممن يبررون قتل الأطفال والنساء أو حتى العبيد الأبرياء، فلنا من المثل العليا ما يجعلنا نشمئز من ذلك – ولكن هؤلاء الجنود كانوا يشتعلون حقدا وغضبا فانطلقوا يطعنون الأطفال بالحراب – وكأنهم يصيدون الأرانب – كما قتلوا بعض النسوة في بدء هجومهم.. وعندئذ بوغتوا بمئات من النساء يخرجن من دورهن يحملن السكاكين والخناجر والفئوس وكل ما يخطر على البال، ومن ثم قامت حرب عجيبة بين الفرسان والنساء، ونسى الفرسان أنهم يحاربون نساء.. ولكنهن لم يكن إلا شيطانات تقودهن شيطانة ألمانية ذات شعر ذهبي طويل – يبدو أنها فارينا – وكانت تتحرك بفأسها في سرعة عجيبة وحيثما تهوى به تقتل كالمجنونة وقد تمزق عنها ثوبها.. وحينما انكسر فأسها التقطت إحدى الحراب واستأنفت المعركة في نفس الحماس والقوة.. حتى حضر بعض العبيد من الخارج فانضموا لنسائهم وحسموا المعركة. ولم يتمكن سوى أفراد قلائل من فرساننا من الهرب.. وهم الذين حكوا ما حدث..

وأطرقت جوليا.. وفهمت لماذا أهدى كراسوس لها تلك القصة.. فها هي ذي السيدة النبيلة لا تملك أن ترفع عينيها في وجه زوجها ذليلة خانعة.. أما فارينا..

وقطع عليها أفكارها صوت كلوديا يتساءل:

– وهل نجت فارينا؟

– أذا كانت هي فارينا فلا بد قد نجت لأنها ظهرت في معارك كثيرة بعد ذلك..

– وهي.. أما زالت حية؟

فقال كراسوس متسائلا بدوره: حية؟ وماذا يهمنا الآن وقد قضينا على رأس الثعبان؟

وعندئذ نهض جراكوس واقفا.. وألقى طرف ثوبه الأبيض فوق كتفه في حركة عنيفة غاضبة.. ومضى بعيدا يذرع المكان في عبوس وتفكير..

وهتف شيشيرو متعجبا:

– ما الذي أغضب الشيخ؟

وأجابت هيلينا:

– من يدري..

القسم السادس

-١-

وفي نفس ذلك اليوم استأذن كل من شيشيرو وجراكوس في السفر إلى روما، بينما بقى كراسوس وكايوس ومن معه استجابة لالحاف مضيفهم إلى صباح اليوم التالي.

وغادروا المزرعة في ساعة مبكرة في موكب من أربع محفات – وما كادوا يصلون الطريق الأبياني حتى انتقى كراسوس عشرة من الجنود يلازمونهم كحرس شرف. وكان كراسوس قد دعي من الحاكم كابوا لمشاهدة ما يجري من الاحتفالات في المدينة لمناسبة دق آخر مسمار في نعش ثورة العبيد، وكانوا قد أبقوا على حياة مائة من المصارعين ممن كانوا مع سبارتاكوس، وأمر الحاكم أن تقام في ملعب البلدية مبارزات ثنائية – على أن يستمر من يبقى حيا في مبارزة ثان وثالث وهكذا إلى أن يبقى واحد في النهاية فيصلبوه على الأبواب السبعة لمدينة كابوا بعد أن يرفعوا الجثمان القديم أن آخر المتمردين، رمز لنهاية الثورة والقضاء على آخر من رفع راية العصيان ضد الجمهورية الرومانية.

وكان كايوس يوضح كل ذلك لكراسوس الذي أبدى تبرما ومللا من مشاهدة ذلك النوع من المبارزات، وفضل أن يتمتع بالتجوال في المدينة لشراء ما يلزمه من العطور بالإضافة إلى رغبته في الاستجمام والاستمتاع بمناظر ضواحيها الساحرة، وقال كايوس أنهم سيمضون فترة الزيارة ضيوفا عند هم لهم في المدينة.. فقال كراسوس:

حسنا، سوف نلتقي إذن بعد أن تنتهي المآدب والخطب الرسمية التي قد تستغرق يوما أو اثنين – ونستمتع بنزهة بحرية في الخليج، واصحبك إلى أحسن محلات العطور فتشتري منها أجملها وأحسنها بأزهد الأثمان..

وانطلق الركب في الطريق الأبياني، ولم تعد مناظر الصلبان بما عليها من آدميين

تثيرهم، سوى أن رائحة العفونة التي امتلأ بها الهواء كانت مثار مضايقة شديدة لهم.. تغلبوا عليها بسد أنوفهم بالمناديل المعطرة.

-٢-

وكانت كابوا في عيد كبير، مدينة لها شهرتها وعظمتها ورخاؤها بعد أن انتهت ثورة العبيد وزال عنها الكابوس الذي كان يهدد نبلاءها وأثرياءها بالموت والدمار. وعاد إليها اغلب من كان قد هاجر عنها خوفا على ماله أو حياته. وفتحت أبوابها السبعة على مصاريعها فقد استتب الأمن وزال الفزع. وارتفع أكثر من مائة علم ترفرف في الهواء على أسوارها العالية، بينما كانت هنالك فرقة من مائة وعشرة عازف، تملأ الجو بالأناشيد الحماسية، يرقص الناس على أنغامها في الشوارع ويشربون.

وقد قوبل كراسوس بمجرد إعلان اقترابه من المدينة، باحتفال عسكري كبير سر له كايوس كما سرت له هيلينا وكلوديا وحمدوا نجومهم لمرافقتهم ذلك القائد الشهير، ودخلوا جميعا المدينة بين دقات الطبول والموسيقى العسكرية النحاسية وكأنها ترحب بعودة أحد الأباطرة من غزوة ظافرة!

وذكرتهم الحفلة الساهرة التي استمرت طول الليل وحضرها أكثر من مائتي مدعو بليالي الشرق الساحرة، وأريقت الخمر فيها أنهارا وجرع كايوس وكلوديا منها حتى ثملا، وكان كراسوس وهلينا يشربان كثيرا ويكتفيان بمراقبة ما يدور في القاعة الجميلة من موسيقى صاخبة وعربدة ورقص ومناظر مضحكة لكبار الساسة ورجال الحكم وهم سكارى.

واقترحت هيلينا أن قوموا بزيارة لمعهد باتياتوس باعتباره أول مكان انطلقت منه تلك الثورة الكبرى، فوافقها كراسوس الذي كان يريد عذرا للابتعاد عن الضجة والصخب بينما اعتذر كايوس وكلوديا عن اصطحابهما لشعورهما بالتعب.

وحملتها إحدى المحفات في ذلك المساء الصافي العليل، وخرجا من الباب الأبياني

الكبير – وما كاد الحرس يرون القائد حتى حيوه فوقف يتفكه معهم وألقى لهم ببعض النقود الفضية ثم سألهم أين يقع المعهد.

ودهشت هيلينا وسألته: ألم تر المكان من قبل إذن؟

فضحك وقال: لا. لم أره أبدا فقد كنت مشغولا بالاهم كما تعلمين..

وقال ضابط الحرس: المكان مهجور الآن. وقد اندثر بعد أن قتل باتياتوس غيلة على يد عبده اليوناني المجنون. وهو ليس بعيدا من هنا، ويمكنكما أن تصلاه إذا سلكتما ذلك الطريق المؤدي للهضبة. والطريق واضح ينيره ضوء القمر.

وكانت قد وصلت ثلة من العبيد تحمل فئوس ومطارق وسلما خشبيا طويلا وسلة كبيرة. فأسندوا السلم على أول صلبان الطريق الأبياني ويقع على البوابة نفسها فسأل كراسوس قائد الحرس..

ما الذي يفعله هؤلاء؟

سيرفعون جثة كلب ليضعوا مكانها جثة آخر الكلاب..

فغدا سوف نصلب هنا "آخرهم" ومن حقه أن يفخر احتلال هذا المركز الممتاز على أهم بوابات كابوا..

وبدأ العبيد يتناولون بقايا جثة رجل مزقتها جوارح الطير وشوتها الشمس فنظر كراسوس إلى هيلينا وقال. يخيل إليّ أن لا شيء في الدنيا يزعجك أو يؤثر في قلبك؟

ولماذا انزعج؟

لم أقصد إيلامك يا عزيزتي ولكنها لمسة إعجاب..

لأن امرأة لا تحمل قلب امرأة؟

فقال كراسوس: أنا قانع بهذا العالم الذي أعيش فيه، لأني لن أجد غيره.. أليس كذلك؟

وكان المعهد خاويا.. ألا من الأخشاب التي سكنتها الفئران وهبطا من المحفة وسارا على أقدامهما يجوسان خلال مناطقه الأثرية والتي طالما شهدت الكثير من المعارك الدامية وكانت هيلينا قد طلبت أن ترى المقصورة، فذهبا إليها وارتمت على الأريكة الواسعة.. وجلس كراسوس بجوارها..

وقالت له: أتشعر بشيء نحوي؟

فأجابها: أشعر بأنك أجمل وأذكى من قابلت من النساء!

فقالت: أما أنا – أيها القائد العظيم – فأشعر بأنك وغد..

ومال نحوها فبصقت في وجهه.. وعندئذ رأت في الظلام عينيه تتأججان غضبا، وهوى بيده على وجهها في صفعة قوية دفعتها بعيدا عن الأريكة فسقطت على الحاجز الخشبي القديم الذي لم يتحمل ثقلها فتحطم وكادت تتدحرج إلى الأرض الملعب الذي يبعد أمتارا منها، لكنها أمسكت نفسها.. دون أن يتحرك كراسوس من مكانه.

وعندئذ انشبت أنيابها ومخالبها فيه كقطة متوحشة لكنه أمسك بها واحتضنها بقوة.. وخمدت ثورتها فبدأت تبكي وهو يصب بها واحتضنها بقوة.. وخمدت ثورتها فبدأت تبكي وهو يصب في أذنيها عبارات الغزل.. وانهارت بلا عاطفة – وحينما مرت الثورة تركها وقال:

لماذا فعلت ذلك يا عزيزتي؟

لكنها لم تجب وسوت شعرها ومسحت وجهها وعينيها ونهضت مطرقة الرأس فتبعها إلى المحفة.. ثم مر الرجال أن يحملوها إلى دارها.. أما هو فسيعود ماشيا إلى المدينة..

وانطلق حتى بلغ البوابة الكبيرة.. ورآه الضابط فحياه.. وسأل كراسوس.. كم الساعة الآن؟

لم يبق على الفجر سوى ساعة واحدة يا سيدي.. هل تشعر بتعب يا سيدي؟

لا.. ولست متعبا.. لقد مضى وقت طويل من الزمن منذ كنت أقف حارسا مثلك طوال الليل..

فأومأ الضابط برأسه وقال: الليالي طويلة جدا يا سيدي.. وبعد نصف ساعة سيمتلئ هذا المكان بالناس.. باعة الخضروات والألبان سوف يدخلون المدينة زرافات ووحدانا، والفلاحون بأبقارهم وصيادو الأسماك وغيرهم وغيرهم.. هذه بوابة المدينة الرئيسية يا سيدي.. وسوف يصعد المصارع هذا الصباح.. إلى هذا المكان.. وأشار إلى الصليب الكبير.. وسأله كراسوس: أيكون الزحام شديدا؟

أجل.. عندما يمتد النهار يا سيدي.. فما زال الناس يشعرون برغبة قوية في مشاهدة آدمي يصلب.. ولسوف ترى في الظهيرة.. ألا موضع لقدم من كثرة الازدحام..

ومن يكون ذلك الرجل؟

لست أدري.. إنه آخر المصارعين الذين بقوا على قيد الحياة يا سيدي..

واختفت النجوم من السماء وبدأت خيوط الفجر تظهر في الأفق، وجيوش الظلام تولي هاربة.. وغاب القمر في الأفق مخلفا سحابة عريضة بيضاء. وكان كراسوس يستند إلى البوابة مفكرا متأملا الطبيعة تباشر هي الأخرى حربا أبدية!

وقال الضابط: هل تشرب شيئا يا سيدي؟

وهز كراسوس رأسه.. أنه لا يشعر برغبة في النوم بعد ما حدث له مع هيلينا، بل أنه ليخشى الانفراد بنفسه.. ولا يريد شيئا سوى أن يقتل سويعات الفجر الأولى مع أي إنسان..

ودوت دقات الطبول قادمة من داخل المدينة، فهتف الضابط يستدعي فرقة الحرس للاصطفاف بجانب البوابة وسرعان ما أقبلت بحرابها ودروعها النحاسية الثقيلة ووقفت في نظام. واشتدت دقات الطبول مع أول لمسات الصباح فوق قباب المدينة وأسطحها العالية.. وظهرت ثلة من الجنود تسبقها فرقة من الموسيقى، وكان بين الجنود رجل عار

مكبل بالسلاسل من خلف.. رجل وحيد يقوده عشرات مسلحون للموت رغم مظهره الهادئ البريء.. كان جسمه مملوءا بالندبات والقطوع وظهره عليه جروح قديمة مستعرضة يبدو أنها من آثار السياط. وكانت إحدى أذنيه مقطوعة، وبعض أصابع يده اليمنى مفقودة..

وما كاد الضابط الذي يقود الموكب يلمح كراسوس حتى رفع يده مشيرا إلى جنوده بالوقوف وتحية القائد واقترب منه في احترام قائلا: أشكر هذه المناسبة السعيدة يا سيدي التي أتاحت لنا رؤيتك.

وأومأ كراسوس برأسه موافقا.. – إنها مناسبة سعيدة حقا أيها الضابط.. هل ستضعونه فوق ذلك الصليب؟

هذه هي أوامري يا سيدي..

من يكون هذا المصارع؟ يبدو لي أنه عمل طويلا في الملاعب بسبب تلك الندوب القديمة من السيوف في صدره..

كان ضابطا في جيش سبارتاكوس وأعتقد من ملامحه أنه يهودي. أما اسمه فهو دافيد، وبالرغم من علمه يقينا أن حياته ستنتهي فوق الصليب إلا أنه بارز في أربعة مجموعات وقتلهم جميعا.

نعم.. الحياة مشكلة معقدة حين نفكر فيها أيها الضابط.. هل لي أن أحادثه أيها الضابط!

طبعا.. وبكل سرور يا سيدي..

واستدار الضابط للمصارع يقول له في صوت مرتفع:

أيها المصارع.. هذا تكريم خاص لك، فها هو ذا القائد البطل ماركوس ليسينوس كراسوس يتنازل بالتحدث معك.

وهتفت الجماهير حينما سمعت اسم القائد الكبير، أما المصارع فقد بدا عليه الصمم.. ظل وجهه النحيل مرفوعا لأعلى وعيناه مثبتان للأمام.. وكأنه تمثال من الحجر..

وقال كراسوس: ألا تعرفني أيها المصارع؟ أنظر إليّ..

ومع ذلك فلم يتحرك الرجل.. ولطمه الضابط بشدة على وجهه.. قائلا: من الذي يحدثك أيها الخنزير؟

ولطمه ثانية.. كأنما يلطم حجرا.. فطلب منه كراسوس أن يكف عن ضربه.. وأن يستمر في إجراءات التنفيذ.

وقال الضابط معتذرا: شدما أنا آسف يا سيدي.. فهو يرفض الكلام، بل يخيل إليّ من طول ما صمت أنه أبكم!

لا بأس..

وتبعهم بنظرهم وهم يخرجون به من البوابة إلى حيث يوجد أول صليب على الطريق الأبياني، وكانت الجماهير قد بدأت تتدفق على المكان. وسار معهم كراسوس وهو يشعر بالفضول ليشاهد كيف يقابل أحد العبيد الموت هادئا كأنه ذاهب إلى حفلة عرس..

وبدأ الجنود عملهم في دراسة وسرعة، ولفوا حبلا طويلا حول وسط الرجل من تحت كتفيه المقيدتين، بحيث كان طرفا الحبل الطويلان متساويين وصعد جنديان على السلم الخشبي ومرروا طرفي الحبل من فوق ذراعي الصليب وناولاه لزملائهم الواقفين على الأرض. الذين جذبوا الطرفين في قوة وخبرة فارتفع المصارع حتى ساوت ذراعاه الذراعين الخشبيتين.. وعندئذ صعد غيرهما يحملان مسامير حديدية طويلة ومطرقتين وبدآ يدقان المسامير في الذراعين واليدين كل من جهته.. بينما عكف زميلاهما على تقييد الجثة بالحبال في رأس الصليب وذراعيه..

ومضى كراسوس يراقب وجه الرجل وهما يدقان المسامير في لحمه وبين عظامه.. ولاحظ أن الطمأنينة والهدوء لم تبارحا وجهه.. بل إن عينيه لم تطرفا من الألم، ولم يند عنه

أي أنين أو صوت، فقط تلوى جسمه بحركة عنيفة ودمعت عيناه.. قبل أن يسقط رأسه على صدره ويغيب عن صوابه. وصفق الجمهور طربا للسرعة التي تم فيها ذلك العمل..

وقال الضابط: أنهم دائما يغمى عليهم من الصدمة الأولى، لكنهم يفيقون ويظلون هكذا ثلاثين ساعة قبل أن يغمى عليهم مرة أخرى. وكان عندنا مصارع غالي ظل حيا أربعة أيام وكان يشتمنا ويصرخ حتى فقد صوته كلنه ظل متمالكا لقواه العقلية حتى قطعنا أحد شرايينه وسالت كل دمائه.. هل تشرب شيئا يا سيدي؟ نبيذا معتقا من أجود صنف..

وأخذ كراسوس الجرة من الضابط.. وأفرغها في جوفه.. فقد شعر بظمأ شديد.. وقرر أن يعود إلى داره ليستريح..

-٣-

ولم يكن كراسوس ليشعر بأي عطف او أسف لمصير ذلك المصارع اليهودي أو الآلاف من رفاقه الذين سبقوه إلى نفس المصير، بل عن تلك القيم والمثل العليا والتي آمن بها في طفولته متأثرا بما سمعه عن أسلافه الأمجاد الذين كانوا يقدسون مبادئ الفروسية والشرف، أصابها كثير من التحوير والتعديل فاقترنت في ذهنه بمدى ما تستطيعه القوة أن تحققه، وذلك منذ أن شاهد مقتل أبيه وأمه بيد بعض خصومهم السياسيين ولم يجرؤ على رفع صوته، بل لم يملك حيالهم حولا ولا قوة.. لأن السلطة كانت وقتذاك في ايدي المعتدين الغاصبين.

لكن الصورة كانت تختلف في ذهن ذلك المصارع المصلوب. كان يشعر بمرارة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وذلك التنكيل والتشفي الذي يمارسه المنتصر نحو خصمه الضعيف المهزوم. وكان دائما يعارض ذلك حتى وهو في عنفوان مجده وقوته حينما كان ساعد سبارتاكوس الأيمن.. فلقد حدث ذات يوم أن أمر سبارتاكوس في إحدى ثورات غضبه بقتل اثنين من النبلاء الرومان كانا قد وقعا في الأسر أثناء إحدى المعارك.. فقال

لهما..

سنكيل لكم بنفس الكيل أيها السادة.. تجردا من ثيابكما وليقاتل كل منكما الآخر حتى الموت!

فعبس دافيد وانتحى جانبا صامتا يفكر، وتحول إليه سبارتاكوس. فقد كانا أكثر من صديقين تقاسما الذل والشقاء في معهد باتياتوس ثم الكفاح والجهاد بعد ذلك.. وسأل سبارتاكوس: هل تراني أصبت أم أخطأت؟

فأجابه: لا ينبغي أن نقلدهم فيما يعتقدونه صوابا.. أنك تنكر المبادئ التي ثرنا من أجلها! ألا ترى أن المبارزات الثنائية كانت من أسباب شقائنا وأقسمنا على ان نقضي عليها قضاء مبرما؟

تلك كانت أول ما طاف بذهن المصلوب من ذكريات.. وقبل أن تدخل المسامير في لحمه.. ويغيب عن صوابه!

– ٤ –

مضت نحو ساعة قبل ان يفيق من غيبوبته. وما أشبه الألم بالطريق الوعر الطويل.. ولا يشعر المسافر بالإرهاق والتعب إلا بعد أن يقطع الطريق ويصل للنهاية! وحينما فتح عينيه أحس بالآلام التي لا تطاق.. فبدت الدنيا قاتمة من خلال منظار دموي أحمر مختلطة بسحب كثيفة من مراحل حياته الماضية. وكان في ذلك يختلف أيضا عمن سبقوه من إخوانه في الكفاح.. ممن تشابهت حياتهم السابقة في ظل العبودية مع نهايتها في ظل الصليب!

رأى نفسه طفلا يلعب فوق تلال "غاليلي" تشوفه منظر عربات الرومان تجرها الجياد الصافنات.. يحاول التعلق بها وهو يهتف: سيدي.. ألا تسمح لي بالركوب معك؟ وكانوا يتحدثون بلغة لا يفهمها. فكان بعضهم كريما فيسمح له بالركوب لحظات وربما منحوه بعض الحلوى ضاحكين لمرأى ملابسه الرثة، أما الباقون فكانوا يدفعونه بسياطهم،

فيسقط فوق المنحدر متدحرجا في قوة وهم في غاية الطرب ومنتهى السرور.

ويكتشف المصارع أنه لم يعد طفلا يدرج فوق منحدرات غاليلي، بل رجلا معلقا على صليب. وتصدمه الحقيقة حينما يحس بالنيران مستعرة في ساعديه ويشعر بألم شديد في بطنه ومعدته.. وينظر من عل إلى تلك الجموع التي احتشدت عند قاعدة الصليب تتأمل في شغف ولهفة.. ليس لأنهم لأول مرة يرون رجلا يصلب، فمنذ مئات الأعوام والناس يصلبون جهرا وعلانية لسبب أو لآخر، بل لأن الفرصة لن تسنح أو تتكرر لمشاهدة آخر العبيد الذين حاربوا روما وهزئوا بقوانينها ونظمها العتيدة.. وجرءوا على رفع أعينهم في تحد وفي وجوه سادتهم وأولياء نعمتهم! يسرهم أن يروا آخرهم، يتجرع مرارة الهزيمة قطرة قطرة!

لقد حضروا إذن ليروا كيف يقابل المصارع النهاية الحتمية لكل الرجال، وكيف يتصرف حينما تشق المسامير لحمه، وأدهشهم صمته وتجلده قبل أن يغيب عن رشده في المرة الأولى.. ومع ذلك فقد ظلوا ينتظرونه حتى يفيق عله يقطع حبل الصمت الطويل ويتألم.. وتراهنت الجماهير المجنونة عليه حتى وصل مبالغ خيالية.. أتراه يظل صامتا متجلدا يتحمل الألم في شجاعة حتى لا يسخر الناس من آخر المصارعين؟ أم ستخونه شجاعته.. وكيف وماذا ستكون أول عباراته؟ أسيصرخ لاعنا شاتما أم ينادي أمه أو يتضرع لآلهته؟

وقد صح ما توقعه الفريق الثاني.. فما كاد دافيد يعود لصوابه حتى شعر بالنار تحرق ساعديه وتشد كل عضلات جسمه ورقبته.. فهتف من أعماقه وهو يرفع رأسه للسماء..

سبارتاكوس. سبارتاكوس! لماذا لم ننتصر؟

-٥-

وحينما يتأكد الإنسان من أنه ميت لا محالة، يجد نفسه مرغما على استعراض أهم ذكرياته.. فتجري امام عينيه صور الحياة في شريط سريع حافل.. كأنه قارئ حلول يقلب صفحات مجلد ضخم في عجلة قبل الوصول إلى الخاتمة المحتومة.

وأنه ليتذكر كيف قام أهله وعشيرته بثورة ضد رجال الدين الجشعين الذين كانوا يتعسفون في نهب نصف محصول المزارعين باسم الدين، فيثرون ويتخمون على حساب البطون الجائعة، ولا يبق للتعساء ما يدفع عنهم غائلة الجوع بعد أن يدفعوا نصف الباقي لمندوبي الحكومة باسم الضرائب المتعددة الأسماء، واستعدى رجال الدين عليهم جنود الجمهورية فاستيقظوا ذات صباح على هجوم مفاجئ مسلح قتل فيه مئات من الشيوخ والنساء والأطفال، وصلبوا أباه أمام عينيه وأسروه مع سبعمائة غلام وربطوهم من أعناقهم بالسلاسل فساروا تحت لذعات السياط إلى الشمال حيث قطعوا مئات الأميال حفاة الأقدام في الجبال الوعرة والصخور والصحاري حتى اعتلوا جبالا لم يشاهدوا لارتفاعها مثيلا، وصعدوا إلى قمتها التي تغطيها الثلوج طول العام!

ثم كلفوه بالعمل في المناجم.. عامين كاملين في مناجم النحاس تحت الأرض، ومات شقيقاه من شدة العذاب وقسوة الحياة.. لكنه كان قوي البنية له عزيمة من حديد.. فصارع الموت وتحداه! وحانت له فرصة، فهرب إلى الجبال – وطوق العبودية حول رقبته، فعثرت عليه إحدى القبائل بعد أن أوشك على الهلاك فآوته وأطعمته ونزعت عنه الطوق وظل معها طول الشتاء، وكانوا قوما طيبين بسطاء في معيشتهم حرفتهم الصيد في البراري، وأجاد لغتهم فأحبوه وعرضوا عليه الزواج من إحدى بناتهم.. لكن الحنين إلى غاليلي ملأ قلبه وعقله، فما أن أقبل الربيع حتى انطلق إليها وفي الطريق أمسكت به قافلة من فارس كانت متجهة غربا وباعوه في سوق الرقيق فاشتراه أحد التجار الفينيقيين وقيده في سفينته بجوار أحد المجاديف.. وظلت حالته أسوأ مما كانت في المناجم، يعاني الأمرين من الظلمة الباردة ورشاش الأمواج العالية يغرقه بين حين وآخر ويبلل جسده النحيل في مكانه وهو يعمل على ذلك المجداف اللعين!

وفاجأتهم بعض المراكب اليونانية فأسرتهم وحينما سأله كبيرهم هل يصلح للقتال كما يجيد التجديف، أسرع بالإيجاب.. فإن أي جحيم يلقونه فيه خير من أن يظل عبدا للمجداف..

وكان قد بلغ الثامنة عشرة وقتذاك، فدربوه على استعمال الخنجر والسكين حتى أجاده وأتقنه، فضموه إلى زمرة القراصنة، يهاجمون القرى الساحلية والسفن التي تعترضهم في الطريق، يقتلون وينهبون كنوزها، ويشعلون فيها النار.. وهو لا يستطيع أن يعصي لهم أمرا وإلا ذبحوه!

كان يعيش على أمل واحد.. هو أن ترسو مراكبهم بجوار شاطئ غاليلي فيتركهم ويهرب عاجلا أو آجلا..

وعلى ذلك الأمل تنقل معهم على طول الساحل الإفريقي ثم شاطئ إيطاليا واسبانيا ثم عبروا المضيق إلى إنجلترا وأيرلندا وبلاد الغال وكروا عائدين إلى الساحل الإفريقي. وهكذا مرت الشهور دون أن يمروا بمسقط رأسه.. ومع ذلك فلم يفقد الأمل أبدا في الخلاص..

لكنه زاد خبرة بالحياة.. وأدرك أنه يعيش في عالم كبير جدا.. أكبر مما كان يتصور.. والبحار والأنهار هي الشرايين التي تمد الدنيا بالقوة والحياة.. ورأى حينما وطئت قدماه طائفة تعبث وتلهو وتلبس الدمقس والديباج والحرير، وبجوارهم أقواما آخرين.. أكثر منهم عددا يموتون من الجهل والمرض والفقر، ولا يجدون ما يسترون به أجسامهم من الزمهرير.. وعلم أنه في مكان ما.. يوجد ملك كبير أو زعيم عظيم لأولئك القراصنة المستبدين.. يسكن بلدا اسمها روما..

وأخيرا اصطدمت سفينتهم بإحدى سفن الرومان المسلحة.. ودارت معركة انتهت بهزيمتهم فأسروه ثم حكموا بشنقه فوق أحد الصواري.. وفي آخر لحظة، حين ودع الحياة وهو ما يزال في ربيع العمر، وآمن بأنه سيخط في كتاب حياته السطر الأخير.. أقبل أحد أعوان باتياتوس.. فاشتراه بدراهم معدودة.. ثم نقله إلى كابوا.

وهناك تعلم أن يقتل – لا في سبيل الكرامة والمجد والشرف، ولا في سبيل السرقة والنهب والقرصنة، بل علموه أن يقتل أخاه في البشرية.. لبعث السرور والفرح والتسلية في قلوب عاهرات روما وشبابها الفاسقين!

ولكثرة ما تعرض له من أحداث وقاسى من آلام جسمانية، وهو لم يتخط بعد مرحلة الشباب.. وشاهد في جمود البشر وتحجر قلوبهم.. أغلق على نفسه صومعة وانتحى جانبا لا يكلم أحدا أو يخالط إنسانا فهو كآلة ميكانيكية يأكل ويشرب ما يقدمونه إليه.. ويقتل من يدفعه سوء الحظ أمامه..

وكان سبارتاكوس يراقبه من طرف خفي، ويعجب لحالته.. فكل المصارعين يلتقون ويتحدثون معه.. عن ذلك الشاب دافيد.. وذات مرة أثناء استراحة قصيرة بين طوابير التدريب تقدم نحوه قائلا:

– هل تتحدث اليونانية يا رجل؟

ورمقته العينان الخضراوتان في حذر وشك.. واكتشف سبارتاكوس أنه أمام غلام ذكي لم يخط شاربه بعد.. ولو استطاع أن ينزع ذلك القناع الحديدي من على وجهه.. لبدت فيه خامة طيبة وأخلاق كريمة.

وقال دافيد في نفسه "هل أتحدث اليونانية؟ نعم.. أعتقد إني أتحدث كل لغات العالم، ولكن لماذا أتكلم على الإطلاق؟"

واستطرد سبارتاكوس في رقة: كلمة مني.. ثم كلمة منك.. نتبادل التحية ونأنس معا.. فنحن بشر ولسنا وحوشا وأن كنا نقتل بعضنا في هذا المكان.. والوحوش الحقيقة هم من يضعون الخناجر بين أصابعنا ويأمروننا بسفك الدماء لنبعث السرور في نفوس الرومان.. وهذا لا يدعونا أبدًا لأن يكره أحدنا الآخر.. فكل إنسان منا قد وُلِدَ وفي قلبه بذرة من الحب والأمل.. وإذا لم نتعهدها دوامًا بالتغذية.. ماتت واندثرت في نفوسنا.. ولترحم الآلهة ذلك الإنسان التعس الذي يعيش بلا أمل أو حب! تحدث إلى إخوانك وافتح لهم قلبك، وسوف يُبادلونك مشاعرك الطيبة!

ولم تفلح المُحاولة الأُولى معه.. لكنها أثارت في نفسه قبسًا ضئيلًا من الفهم

والإدراك – ومضى يُراقب سبارتاكوس عن كثب. وينصت لحديثه خفية.. فقد كان حاد السمع كأنه ثعلب، ويُسجل كل ما سمعه في ذاكرته ليعيده إلى نفسه حينما يخلو في صومعته مُحاولًا تحليلها واستخراج النتائج منها. ولم يكن ذلك شأن دافيد وحده، بل كانوا جميعًا ينصتون إليه في مُحاولاته لإزالة غشاوة الجهل والحقد والكراهية عن قلوبهم حتى عبدوه.. وكان دافيد معهم.

ولم ينس دافيد حينما جلس ينصت إلى سبارتاكوس وهو يتلو قصة الإلياذة والأُوديسا في صوت مُؤثر قوي.. قصة رجل شجاع تحمل كثيرًا وقاسى أهوالًا عديدة ومع ذلك فلم ينهزم. وبدا دافيد يتغير روحيًا.. وبذرة الحب التي حركها سبارتاكوس في قلبه المُظلم، تخرج وتنمو في النور. كان قد أحب فتاة في تلال غاليلي شفتاها في لون العناب ووجنتاها ناعمتان كالندى، وكان قد فقد الأمل في أن يراها.. ونسيها تمامًا، فإذا به بعد أن خالط سبارتاكوس يحلم بلقياها وضمها إلى صدره مرة أُخرى.. فهل أنجبت الخليقة مثل سبارتاكوس في طيبته ورحابة صدره وقوة احتماله؟

وحينما وقع عليه الاختيار ضمن أربعة سيتبارزون ثنائيًا حتى الموت.. نشبت في صدره المعركة الأُولى ليخرج من الصومعة الحديدية التي اعتزل فيها الناس وأغلقها على نفسه.. وصمم على عصيان ذلك الوحش باتياتوس.. فهو لن يقتل زميله ليرضي أولئك الرومان الطُغاة بأي حال حتى ولو حكموا بإعدامه.. ذلك ما حدثه به قلبه، لكن عقله كان مُتمردًا عليه، كان يُحاوره في عنف يُذكره بما سمعه عن سبارتاكوس «على كل إنسان في الدنيا أن يختار أحد جانبين.. جانب الحياة أو جانب الموت.. وسبارتاكوس يريد أن يعيش ليحقق آمالًا كبارًا.. ولو أُتيح له أن يُبارزني لقتلني كي يعيش، فكيف أُسلم لهم نفسي لقمة طرية سائغة؟ آه لو أُتيح لي أن أقتل أولئك الأوغاد الرومان وأخلص الدنيا من شرورهم».

ولقد حدثت المُعجزة التي تنبأ بها سبارتاكوس، وكان دافيد أول من سارع للانضمام تحت لوائه.. وأُتيحت له الفرصة، بل عديدًا من الفُرص في ميادين القتال ليقتل.. لسبب

آخر يختلف تمامًا عمّا مارسه في ماضيه.. يقتل من أجل إعلان حرية البشر وحقوق الإنسان.. وخلال ذلك أحب زعيمه سبارتاكوس حُبًا لم يشعر به نحو أي مخلوق.. وذات مرة طلب من سبارتاكوس أن يجعله دائمًا بجانبه.. ودارت المُحاورة التالية:

– سبارتاكوس! هل تراني أجيد القتال؟

– نعم.. نعم.. إنك لمن خير المُقاتلين الأبطال.

– ولست جبانًا.. أليس كذلك؟

– لا.. لا.. وهل يُمكن لِلمُصارع أن يكون جبانًا؟

– وهل رأيتني أفر من أية معركة أو أدير لها ظهري؟

– أبدًا.

– ولم أبك حينما قطعوا أُذني بسكين، بل أطبقت أسناني وتحملت الألم دون أن أنطق بحرف!

– ليس عارًا أن تبكي يا ولدي إذا اشتد بك الألم.. فلقد رأيت أبطالًا تسيل دموعهم عند الشدة.

– كم أتمنى أن أكون مثلك يومًا ما يا سبارتاكوس!

– ستكون أصلب مني عودًا وأقوى جنانًا.

– لا.. لا .. كل ما أتمناه أن أكون في نصف شجاعتك .. بيد أني أعتقد أني أجيد القتال .. سريع الحركة كالقطط .. القطة تعرف مصدر الخطر قبل انطلاقه، وأعتقد أن لي حاستها الموهوبة، وأرجو أن تجعلني دائمًا إلى جوارك في المعركة، ولسوف أذود عنك وأحميك بروحي وجسمي، لأننا لو فقدناك، سنفقد كل شيء، ونحن لا نحارب لتحقيق مصلحة خاصة لنا، بل من أجل العالم كله، لذلك ألح ملتمسًا أن تبقيني بجانبك ..

- هناك ما هو أولى وأهم من بقائك بجواري، فنحن في حاجة لمن يقود الجيش ..

- بل أرجوك ألا تخيب رجائي .. سأسهر عليك صباح مساء .. هذه أمنيتي!

وهكذا أصبح دافيد ساعد سبارتاكوس الأيمن .. وانفتحت أمامه آفاق ذهبية .. لسوف يحررون جميع عبيد الدنيا من أدناها إلى أقصاها .. وسيتضاعف عددهم حتى يحكموا روما وينشرون في ربوع هذه الجمهورية الغاشمة مبادئ المساواة والعدالة والحرية .. ستعود الدنيا كما كانت في بدء الخليقة طمأنينة وسلام وإخاء لا فرق بين أسود وأبيض وسيخلد التاريخ أسماءهم بحروف من نور .. أجل .. إن يوم دخولهم روما لقريب وسيقابلون بالهتاف والموسيقى ..

(ولقد صدرت له الحمى تهليل الجماهير التي كانت تشهده فوق الصليب كما لو كانت أصوات الهتاف والترحيب)

وهو الآن وحده مع فارينيا .. كلما وقعت عيناه عليها ذاب قلبه وجدًا وشغفًا، ورأى فيها أجمل امرأة في الوجود، وكم مرة لام نفسه وعاتبها في عنف: (لله ما أحقرك يا دافيد! أتعشق زوجة زعيمك من دون نساء الأرض طرا؟ أنسيت أنه ولي نعمتك ولولاه لكنت ما تزال رقيقًا ترسف في الأغلال؟ أهكذا تكافئه؟ ما أبشع ذلك! ما أفظع ذلك! إنها لجريمة لا تفتقر حتى ولو كتمت حبك في قلبك ولم تظهره أبدًا! إنه حب لا أمل فيه يا دافيد انظر إلى وجهك في المرآة .. ترى وجهك النحيل كأنه وجه صقر .. وأذنك المقطوعة المشوهة..). وكانت فارينيا تبتسم كلما رأته وتقول له «ما أغربك يا فتى .. إنك تأخذ الدنيا غلابًا .. دائم العبوس لا تبتسم أبدًا .. أكل مواطنيك مثلك وكان يجيبها، لست فتى يا فارينيا .. بل رجلًا يخوض المعارك والدماء، وأثبت للناس جميعًا رجولتي»

- أأنت ذلك حقًا؟ ومع ذلك فما زلت صبيًا لم ينبت الشعر في فوديك، وينبغي أن تكون لك فتاة، تحيط خصرها بساعديك القويتين وتحدثها في رقة وحنان وتضحك لهمساتها، ألا تجد هنا من بين الفتيات ما تروق له؟

- لدي أعمال كثيرة ولا أجد وقتًا للعبث ..

أتسمي الحب عبثًا؟ أواه يا دافيد ما أغرب ما تقول:

وأجابها في خشونة: أتحسبين قيادة الجيوش لهوًا ولعبًا؟ واطعام هذه الآلاف وتدريبهم على فنون القتال أمورًا سهلة هينة؟ إن في أيدينا مفاتيح العالم المغلق .. وبعد ذلك تطلبين مني أن أعشق وأحب؟

– لو أن سبارتاكوس قال لي .. لا وقت لدي حتى أحبك .. أنا مشغول، لقتلت نفسي غضبًا .. فلا شيء في الدنيا أهم في أن تكون إنسانًا له غرائزه وعواطفه .. هكذا يقول دائمًا .. وأنا أحب فيه البساطة والرقة.

ويستجمع أطراف شجاعته ويسألها: أتحبينه يا فارينيا؟ فضحكت دهشة وسألته: ما هذا الذي تقوله يا فتى؟ إنني أحبه أضعاف ما أحب نفسي ولو أمرني أن أقتل نفسي لما ترددت.

وفي وسط تلك (الهلوسة) تنتقل ذكرياته مرة أخرى على صوت ضجيج الناس ودقات الطبول، إلى المعارك .. حيث تتصادم الكتل البشرية .. لا حديث بينها إلا حديث القتل والدم .. أن العبيد قد صاروا الآن جيشًا كبيرًا منظمًا يلقي الرعب في قلوب طغاة روما .. فمضوا يرسلون مالًا لا حصر له ولا نهاية من جنود الرومان كأمواج المحيط .. كلما انكسرت احداها .. تقدمت بدلها عشرات غيرها..

وكانوا قد احتلوا قمة الجبل الكبير ونصبوا مدفعيتهم على جانبيه على شكل ملال طوله نصف ميل في كل اتجاه، ومن تحت أقدامهم – قناة صغيرة تشق الوادي الكبير وعلى جانبيها حقول خضراء ترعى فيها بقرات سمان .. وفي الجانب الآخر من الوادي .. وعلى مدى البصر .. تقف جحافل الجيوش الرومانية ..

وارتفع علم سبارتاكوس فوق القمة يخفق في الهواء بجوار مركز قيادته، وتحته جلس أحد الكتبة على مائدة فوقها أوراق وأدوات للكتابة .. وتحت امرته خمسون عداء متأهبين لنقل الأوامر والتعليمات لقادة الوحدات ومراكز الدفاع – أما في داخل غرفة القائد .. فقد وقف سبارتاكوس على رأس مائدة مستطيلة وحوله ثمانية من الأبطال المجاهدين

يتطلعون في خريطة كبيرة توضح مواقع العدو من ميدان المعركة..

وكان دافيد يقف على يمين معبوده، الذي كان قد جاوز الأربعين ودب المشيب في شعره ونحل جسمه، وبدت دوائر زرقاء حول عينيه من قلة النعاس والتعب .. كان يحمل فوق كاهله مصير شعب كبير، ويمسك بين يديه أرواح خمسين ألف مجاهد سلموه رقابهم وبذلوا دماءهم عامين كاملين في سبيل الحرية والعدالة الاجتماعية – وبعد قليل سيخوضون المعركة الفاصلة التي ستحدد وتقرر أيهما سيبقى على ظهر البسيطة الخير أم الشر؟

وكان سبارتاكوس يشعر بالخوف والقل وهو يدير بصره في أعوانه .. كريكوس الغالي بشعره الأحمر وعينيه الزرقاوين الغارقتين في وجهه الأحمر الهادئ .. وشاربه الأحمر الكثيف يكاد يغطي ذقنه .. وبجواره جانيكوس رفيقه في المناجم والمبارزات والقتال وابن قبيلته الذي لم يتركه أبدًا في السراء والضراء .. وكاستوس وفاراكسوس ونوردو الإفريقي المارد الجبار .. وموسار المصري الرقيق ذو الخلق الطيب الكريم الذي لا يكف عن إطلاق الفكاهة في أحرج المواقف .. ودافيد .. الشاب المتحمس الفدائي .. لا يبدو على أحد منهم جميعًا أي خوف أو قلق .. فلماذا لا يخاف إذًا؟

وقال سبارتاكوس في صوت أجش: حسنًا يا رفاق .. هل نجلس ونكتفي بالنظر إلى أعدائنا وهم يعدون الخطط للقضاء علينا ..؟

وقال جانيكوس: إن جيشهم كبير .. بل إنه لأضخم وأكثر عددًا من أي جيش قابلناه من قبل، وإذا أحصينا أعلامه .. عرفنا أنهم عشرة فيالق .. السابع والثامن من بلاد الفال، واثنان من اسبانيا وثلاثة من إفريقيا والباقون لا أعلم من أين جاءوا بهم .. إنهم أكثر من سبعين ألف جندي!

ونفخ كريكسوس من أنفه وقال:

– إن حديثك يبعث في نفسي الملل يا جانيكوس! جيش كبير حقًا ولكن بدون مبادئ أو أهداف يحاربون من أجلها .. إنهم خشب مسندة فلماذا نخشاهم؟ أنا ما زلت

عند رأيي، نهاجمهم فورًا دون أن ننتظر دقيقة واحدة.

«وكان جانيكوس يوصي بالانتظار، فلربما قسم القائد الروماني جيشه .. وكانوا يفعلون ذلك دائمًا من قبل».

وقال سبارتاكوس:

– هذه غلطات كانت سبب هزائمهم السابقة ولن تتكرر منهم، إنهم يفهمون أننا جميعًا هنا .. فلماذا يقسمون أنفسهم؟

وقال المصري موسمار:

– أنا أوافق كركسوس على رأيه . أمامنا عدد كبير ولابد أننا سنحاربه عاجلًا أو آجلًا ومن الصواب أن نعجل بذلك قبل أن يبدأوا بنا .. وإذا حصرونا فسنموت جوعًا بكل تأكيد.

وأومأ سبارتاكوس برأسه موافقًا وقال:

– حسنًا .. سنبدأ بالهجوم إذن .. اعط أوامرك يا دافيد لقيادة الوحدات وسنتحرك بعد ساعتين.

ولكن الرومان هم الذين بدأوا بالهجوم .. ما كاد القادة ينصرفون ليكونوا على رأس الفرق، حتى بدأت مقدمة الرومان في التحرك على شكل رمح رأسه مسددة إلى المنتصف تمامًا حيث مركز القيادة .. وجناحان إلى الجانبين انتشر بقية الفيالق في شكل مروحة ضخمة لا نهاية لها .. تتقدم إلى الأمام، وظل دافيد بجوار سبارتاكوس، الذي مضى يصدر أوامره السريعة بالاستعداد والتقدم.

ثم التحم الجيشان! ولم يعد سبارتاكوس قائدًا أعلى لجيشه، بل مجرد محارب يطوح بسيفه في الرقاب ودافيد بجانبه كأنهما صخرة عتيدة، وحدث أن كانا يقاتلان بمفردهما لينجوا بحياتهما، وإذا بمائة من الأعوان يسارعون لهما ويخلصانهما من مأزق حرج .. ونظر دافيد إلى سبارتاكوس .. ووسط العرق والغبار والدماء . كان التراسي يبتسم!

ودافيد يقاتل كالقطة المتوحشة، يشعر بالخطر قبل أن يصل سبارتاكوس فيقضي عليه بحاسته السادسة التي لم يعرف لها تفسيرًا .. إنه لا يرى شيئًا وسط المعركة إلا جسم سبارتاكوس الذي يتحرك كالزئبق ويحاول جهده أن يمنع بسيفه كل من يحاول الاقتراب منه كاللبؤة تحمي أشبالها بمخالبها وأنيابها .. وكان الرومان يركزون هجومهم على سبارتاكوس مدركين أن في القضاء عليه نهاية لمتاعبهم كلها .. كلهم ينادي .. إلى سبارتاكوس .. إلى سبارتاكوس .. نداء تسمعه على بعد أميال .. وأن صوت القتال ليملأ الجو ويطير مع الرياح فتسمعه مدينة تبعد خمسة أميال من مكان المعركة ..

ولكن دافيد قد أصم أذنيه وهو يدفع الموت والأذى عن حبيبه وصديقه .. ويعيش حيث هو في البقعة التي يحارب فيها مع سبارتاكوس ولا يدري شيئًا عما يدور على بعد ميلين منه .. لا يعرف أن كريكسوس قد استطاع أن يشتت شمل فيلقين كاملين ويطاردهما برجاله وهما يلوذان بسبل النجاة .. وهو لا يعرف أنهم قد شقوا طريقهم هابطين من قمة الجبل، ونزلوا الوادي إلا بعد أن ساخت قدماه في الماء، وها هي ذي المعركة على أشدها والمياه تبلغ صدورهم .. وقد استحال لونها أحمر بلون الدماء .. وتميل الشمس للغروب .. فإذا بالدنيا كلها حمراء .. كأنما تبكي بدموع من الدم آلافًا من البشر يأكل الحقد قلوبهم، وتهب النار القوية في قلوب آخرين يحاربون من أجل العدالة والحرية!

وتخف حدة المعركة في الظلام لكنها لم تتوقف، وتحت نور القمر الشاحب ينحني العبيد يطفئون عطشهم من ماء القناة .. لأنهم لو استبد بهم الظمأ لماتوا.

ويتوقف هجوم الرومان عند الفجر .. هؤلاء العبيد أما مجانين أو شياطين .. إن المقاتل منهم لا يكف عن الحرب إلى أن يسقط في مكانه جثة هامدة .. سيظل يحارب بسيفه ورمحه .. فإذا قطعت يديه حاربك بأسنانه فمزق لحم ساقيك وقدميك قبل أن تفصل رأسه .. إنه يحارب إلى آخر نفس في صدره ويلقي بنفسه في أتون النار طائعًا مختارًا لا يهاب الموت .. بل يناديه.

وذلك ما بعث الرعدة في قلوب الرومان .. إنهم يحصدون الشر الذي بذروه،

يجمعون الحقد والكراهية التي رووها بأنانيتهم وطغياتهم وانتهازيتهم .. الخوف من العبيد انقلب فزعًا طاغيًا ورعبًا كبيرًا .. إنهم دائمًا داخل البيوت . وهم خارجها يتسمون لك كل يوم، والمقت في قلوبهم لا يفكرون إلا في قتلك إنهم قادرون على الصبر والانتظار الطويل وذاكرتهم لا تنسى أبدًا سوء المعاملة والاضطهاد يختزنون السيئة إلى يوم قريب .. والآن .. قد أنبتت الأشجار فاكهة مرة المذاق.

والرومان الآن يشعرون بالإجهاد والتعب .. لا يجدون قوة ليحملوا دروعهم الثقيلة أو يشهروا سيوفهم . أما العبيد فهم يزدادون صلابة وقوة . وتحدث المعجزة، عشرة يلوذون بالفرار من هذا المكان، ومائة من مكان آخر .. ثم يتبع الأولين مائة .. وسرعان ما تسري العدوى في جنود الرومان كلهم .. فيلقون بأسلحتهم ويولون الأدبار .. ويحاول الضباط استيقافهم بالنداءات والتوسل .. وحين يلحق العبيد بهم يطيرون فزعًا ويجرون .. وإذا بالأرض لمسافة أميال مغطاة وكأنها بساط عريض من الجثث ملقاة على وجهها . والطعنات في ظهورها.

وحين يعثر كريكسوس والآخرون على سبارتاكوس . يجدونه بجوار دافيد .. راقدًا على ظهره نائمًا وسط القتلى ودافيد يقف على رأسه شاهرًا سيفه ويصيح: اتركوه نائمًا .. هذا نصر عظيم ومن حقه أن ينام!

ولكن مات عشرة آلاف عبد في ذلك النصر العظيم .. وما زال هناك جنود آخرون من الرومان .. لا حصر لهم ولا عددا!

-٧-

وهو الآن بجانب سبارتاكوس حينما جاء نبأ مقتل كريكسوس .. قبل أن يحقق ذلك البطل حلمه الكبير بدخول روما .. وكان سبارتاكوس يدرك بأنه لن يحطم روما .. بل هي التي ستحطمه ومع ذلك فقد كان يناضل ويكافح من أجل تحقيق المستحيل .. وها هي ذي بداية النكبات .. كريكسوس يموت .. ويموت معه عشرون ألف جندي من العبيد ..

لن يضحك الغالي الأحمر بعد ذلك ولن يسمع أحد صوته القوي الهازئ المتفائل

كان دافيد بجانب سبارتاكوس حينما قدم الرسول – واحد ممن نجا من الموت – يحمل ذلك النبأ اللعين .. وينصت إليه سبارتاكوس حزينًا ثم يقول لدافيد:

– أسمعت؟

– نعم ..

– هل سمعته يقول أن كريكسوس قد استشهد ومعه عشرون ألفًا من رجالنا؟

– نعم ..

– وهل يحصل منجل الموت كل هذه النفوس الطاهرة المؤمنة مرة واحدة؟ يا للسموات!

– لقد وجد الموت منذ أن خلق الله الإنسان الأول .. لماذا تبكي يا سبارتاكوس؟ إن الموقف قد صار صعبًا بلا ريب، ولن يتركونا حتى يقتلونا أيضًا .. فلماذا البكاء؟

ويسأله سبارتاكوس:

– أما بكيت أبدًا؟

– مرة واحدة .. حينما شاهدتهم يدقون المسامير في جسم أبي فوق الصليب.

– أنت لم تبك حزنًا على والدك .. وأنا لا أبك على كريكسوس .. إنما نبكي من أجل الجموع .. من أجل أهدافنا التي لم نستطع تحقيقها لخير الإنسانية جمعاء .. لماذا يحدث كل هذا؟ وفيم أخطأنا؟ لم أشك يومًا في النصر حينما أعلنا الحرب على الظلم والاستبداد .. ومعنا كل رفاقنا من العبيد أقوياء بقلوبهم وأسلحتهم .. وامتلأت قلوبنا فخرًا ونفوسنا عزة بزوال عهد الإرهاب والسياط .. ودقت الأجراس تحيينا من كل أرجاء الدنيا، فلماذا فشلنا؟ أي كريكسوس .. يا أخي .. يا رمز البطولة والفداء .. لماذا تركتنا؟ ابعثوا لي بفارينيا .. قولوا لها أني أشعر بالخوف.

ثمة لحظات قبل الموت، يصفو فيها فكر الإنسان، وتعود ذاكرته إلى قوتها الأولى كأنه في مجد قوته وعز شبابه .. ولقد فتح المصارع عينيه .. ورأى الطريق الأبياني الكبير الذي شاهد الثورة في عنفوانها ولحظات النصر .. كما شاهد الخاتمة المؤلمة، ومن وراء الطريق الخليج الكبير ومياه البحر الزرقاء يهب منها النسيم العليل .. يمسح وجهه برفق كيد أم حنون.

وعندئذ رأى كراسوس وعرفه .. وتلاقت أعينهم .. كان القائد الرومان يقف منتصبًا كالتمثال، يغطيه ثوب الشيوخ الأبيض من الرأس حتى القدمين في طيات منظمة مطرزة بالذهب يمثل جبروت وعظمة روما وقوتها!

وقال المصارع في نفسه:

– إذًا فقد حضرت لتشهد نهايتي يا كراسوس! لتشهد نهاية آخر العبيد فوق الصليب .. هكذا يغلق آخر العبيد عينيه وهو ينظر إلى أغنى وأقوى رجل في العالم ..

وفي تلك اللحظة تذكر المصارع متى رأى كراسوس قبل ذلك . وتذكر سبارتاكوس حينئذ . كان يؤمن بأن النهاية قد اقتربت .. وأن المعركة الأخيرة على الأبواب . ودع فارينيا الباكية في خشونة وهي تتعلق به وتناشده البقاء معها .. كانت في آخر أيام حملها وكان يرجو أن يرى ابنه قبل أن يخوض قتاله الأخير .. ولكنه كان مضطرًا لتركها وما زال الجنين في أحشائها .. وقال لدافيد:

– لن يتاح لي أن أرى ولدي يا أخي ورفيقي الأمين .. وهو الشيء الوحيد الذي يؤلمني.

واحضروا لسبارتاكوس جواده الأبيض .. لله ما أجمله! جواد فارسي أصيل أبيض في لون الجليد، تبدو عليه إمارات الذكاء والكبرياء معًا .. جواد يليق براكبه البطل العظيم، يشتعل قوة وحياة وحماسًا، مثل سبارتاكوس الذي بدا في قمة صحته وشبابه بالرغم من

شعره الذي شيبته معارك الشهور الست الأخيرة ..

وجرة سيفه وهو ينادي رفاقه في الجهاد صائحًا:

- أولًا .. يجب أن أشكركم جميعًا أيها الرفاق على هديتكم الكريمة .. أشكركم من أعماق قلبي.

وبحركة سريعة مفاجئة، وقبل أن يستطيع أحد أن يمنعه .. طعن صدر الحصان بسيفه حتى المقبض، وهاج الحصان ثم سقط على الأرض متقلبًا حول نفسه .. ومات بين دهشة الحاضرين ..

واستطرد قائلًا:

- مات الحصان .. وهل تشعرون بالحزن والبكاء لمقتل جواد؟ نحن نقاتل من أجل الإنسان، لا من أجل الحيوان .. فالرومانيون يعشقون الحيوان ويكرمونه، أما الإنسان فلا يجد منهم إلا كل تعذيب وتحقير .. ولسوف نرى قريبًا من الذي سيمشي .. هدية عظيمة تؤكد لي مقدار اعتزازكم وحبكم لي، وهو لا يقل أبدًا عما أشعر به نحوكم من حب كبير، بل لن أجد من الكلمات ما يكفي لأعبر به عن حبي لكم أيها الرفاق الأعزاء .. أن أرواحنا مرتبطة معًا ومصيرنا واحد، وحتى لو فشلنا اليوم، فقد وضعنا لأحفادنا والأجيال القادمة أساسًا يسيرون على هديه، وطريقًا ممهدًا يسلكونه وربما تحقق لهم النصر يومًا .. لقد حاربنا روما أربعة أعوام طويلة حافلة بالأحداث ولم نول الأدبار أبدًا .. ولن نخاف أو نهرب منهم اليوم .. فهل تريدونني أحارب على ظهر جوادي؟ لا .. سنحارب جميعًا على أقدامنا واقفين راسخين كالأوتاد، وليركوبا هم جيادهم الصافنات .. سأقف معكم على قدمي جانبي إلى جانبكم كأخوة أشقاء في المعركة والكفاح .. فإذا انتصرنا اليوم .. سنجد آلاف من الجياد .. ولن نستعملها في جر العربات المطهمة .. ل في جر المحاريث لتنبت الأرض لنا من طيب زرعها ما يطعم البشر أجمعين، أما إذا قدر لنا أن نفشل .. فلن نحتاج إلى جياد أو خيول!

وعانقهم فردًا فردًا .. وقبلهم .. وحينما جاء دور دافيد قال له:

– وأنت يا صديقي .. أيها المصارع العظيم .. هل ستبقى بجواري اليوم؟

– بجوارك إلى الأبد ..

وقال دافيد في نفسه .. وهو معلق على الصليب ينظر إلى كراسوس:

– لو قدر لنا أن ننتصر .. لتغير الموقف يا كراسوس..!

ولم يكن دافيد آسفًا .. فتلك هي مشيئة الأقدار .. لقد كان بجانب سبارتاكوس، حينما كان كراسوس يركب جواده وعلى مقربة منهما .. وكان سبارتاكوس يصيح به مناديًا.

– تعال يا كراسوس .. تعال إلينا وسنقدم لك ما تستحقه من التحية!

كان يحارب بكل قوته، مستميتًا في الهجوم والدفاع، إلى أن أصابه حجر من مقلاع فسقط على الأرض مغشيًا عليه .. وقد أسعده ألا يشاهد نهاية سبارتاكوس حبيبه وزعيمه ومثله الأعلى، وأسعده أيضًا ألا يشمت الرومان بصلب جثة سبارتاكوس ليمطروه إهانات وشتائم .. إنه يشعر بالسعادة والاطمئنان وزالت عنه كل الآلام .. إنهم لم ينهزموا أبدًا ولسوف يعودون يومًا قريبًا ليستأنفوا معركة الكرامة والشرف ..

كان يريد أن يقول ذلك لكراسوس .. وحرك شفتيه لكن صوتًا ما لم يخرج منهما ..

وشعر كراسوس بأن الرجل يريد أن يقول له شيئًا فاقترب من قاعدة الصليب.

وفجأة سقط رأس المصارع على صدره .. فقد مات.

وألقى كراسوس الوشاح الطويل على ذراعيه في غضب .. وانصرف ..

القسم السابع

-١-

نظر شبشيرو إلى رفيقه جراكوس الذي كان يعتلي المحفة المجاورة له في طريقهما إلى روما .. وقال له ضاحكًا:

- هل عدت للنعاس مرة أخرى يا جراكوس؟

- لا .. كنت مستغرقًا في التفكير فحسب ..

- أفي أمور الدولة الخطيرة؟

وقال في نفسه: «أن الوغد يدبر مؤامرة لأحد أعضاء الشيوخ»

- لا .. لا .. بل كنت أفكر في أسطورة سمعتها في طفولتي.

- ألا تقصها علي؟

- إنها ليست مسلية .. وربما تبعث في نفسك السأم.

- لن تكون أثقل ظلًا من منظر الطريق الذي لا يتغير!

- إنها أسطورة أخلاقية تلائم الأطفال سمعتها وأنا في السابعة من عمري، وربما لم يكن لها مغزى مفهوم..

- حسنًا .. كل القص لها مغزى ومفهوم .. وربما غاب عنا ذلك المغزى .. أريد أن أسمعها ولن أخيب ظنك في تقديري لها ..

- ما دمت مصرًا فها هي ذي .. إنها عن سيدة أنجبت ابنًا وحيدًا .. طويل القامة، قوي البنية، جميل المحيا .. وكانت تفخر به وتكحل عينيها برؤياه وتعتز به وتحبه كجزء

من نفسها.

– هذه امرأة نادرة الوجود .. ليست مثل أمي التي كانت تكرهني وتعتبرني عقبة في سبيل ارضاء غرائزها.

لقد حدثت هذه القصة في زمان غابر .. حينما كانت في الدنيا فضيلة .. أحبت هذه الأم وحيدها، وكان يبادلها الحنان والحب، حتى سلبته منها فتاة جميلة بقدر ما كانت شريرة، أحبها بكل كيانه دون أن تبادله أي ذرة من الحب .. ومضى يلتمس عطفها عليه بأي طريق .. وسألها ما الذي يستطيع أن يقدمه لها – مهما كان مستحيلًا – حتى تهبه قلبها؟ هل يبني لها قصرًا .. هل يجمع لها كنوز الدنيا ويلقيها تحت قدميها .. هل يذبح نفسه قربانًا؟ عليها أن تأمر وما عليه إلا الطاعة .. فطلبت منه هدية بسيطة لو استطاع تقديمها؟

– هدية بسيطة؟

وصمت جراكوس لحظة ثم أومأ برأسه مفكرًا وقال:

– نعم .. هدية بسيطة .. لقد طلبت من الفتى أن يأتي لها بقلب أمه .. وأطاعها، فأخذ سكينة وغرسها في قلب أمه، وأخرج قلبها ومضى مسرعًا متلهفًا خلال الغابة ليقدم الهدية لمحبوبته الشريرة، فتعثر وسقط وطار القلب من بين يديه على الأرض، فنهض الفتى ليستعيده ويحمله إلى الفتاة .. وإذا به يسمع القلب يقول في حنان: «ابني .. ابني .. هل أصبت نفسك يا حبيبي؟»

واعتدل جراكوس في جلسته فوق المحفة .. ومضى ينظر في أظافر يديه ..

وسأله شيشيرو

– كذا؟ وبعد؟

– إنها كل القصة .. ألم أخبرك أنها أسطورة صبيانية بدون مغزى؟

– العفو والمغفرة؟ إنها ليست قصة رومانية على أية حال، فنحن الرومان لا نؤمن بالعفو..

– ليس العفو .. بل هو الحب ..

– آه ..

– ألا تؤمن بالحب يا شيشيرو؟

– لا وجود للحب إلا في الأساطير .. ونحن الرومان لا نؤمن بالأساطير وإنما بالحقائق المجردة ..

– لا .. أنت مخطئ في ذلك .. فنحن بحاجة إلى الحب حتى تتذوق الحياة..

–٢–

وكان قد اقتربا من ذلك الصليب الكبير في أول الطريق الأبياني من جهة روما .. وأشار شيشيرو إلى الرجل البدين القابع عند قاعدة الصليب وقد أخذته سنة من النوم .. وقال لجراكوس:

– يبدو أنه كان من رجال السياسة القدامى ..

– نعهم .. ولقد كان صديقًا قديمًا لي..

وأمر جراكوس العبيد بإنزال المحفة .. ثم التفت لشيشيرو قائلًا:

– سوف أتحدث معه قليلًا .. وإذا شئت أن تستمر فلا بأس فلقد صرنا على أبواب روما..

– بل أنتظرك ..

وانطلق جراكوس إلى الرجل .. وأدرك شيشيرو أن الرجلين متعارفان وسمع جراكوس يقول:

– هذا المساء ..

وهز الرجل البدين رأسه .. وعندئذ ارتفع صوت جراكوس في حدة

– لعنة الأبالسة على سكستوس! ألم أعرض عليك عرضًا كريمًا؟ إما أن تفعل كما قلت لك أو أقاطعك أبدًا .. لن أحدثك أو أنظر إليك ما دمت حيًا .. أو ما دمت أنت حيًا ولن أعتقد أن الأمر سيطول بك وأنت تجلس تحت هذه الجيفة المتعفنة ..

– معذرة يا جراكوس ..

– لا تعبر عن أسفك .. افعل كما قلت لك ..

وعاد جراكوس إلى المحفة فاعتلاها .. وانطلق مع شيشيرو حيث افترقا في الميدان الكبير وذهب كل إلى داره .. وما كاد يستقر داخل بيته ويغتسل ثم يبدل ثيابه حتى نادى إحدى الجواري وطلب منها أن تبقي طعام العشاء إلى أن يحضر أحد الضيوف بعد قليل .. ونبه عليها بأن تحترمه كل الاحترام ولا تهزأ من قذارته ورثاثة ثيابه، ولفت نظرها بأن ترشده إلى الحمام حتى يغتسل وتقدم له بعض ثيابه .. التي سوف تلائمه لتقارب جسميهما ..

وقد نفذت أوامره بدقة، فما كاد جراكوس يلج باب غرفة الطعام حتى وجد ضيفه مستقر على أريكة نظيفة .. بيد أنه كان يحتاج لحلاق .. فبادره وهو يفرك يديه سرورًا ..

– إذا أمرت لي بحلاق يزيل شعري الكثيف ..

– بل سنتناول عشاءنا قبل كل شيء فأنا جوعان يا فلافيوس، ستقضي الليل في قصري وستجد الحلاق في الصباح .. هذا إلا إذا كنت تخشى أن يغضب سيكستوس منك لتناولك الطعام على مائدة أحد أعدائه.

وابتسم فلافيوس ماركوس وقال:

– حسن منك أن تهزأ مني يا جراكوس .. فلقد ابتسمت لك الدنيا .. ثراء ورفاهية

واحترام وشرف وقوة .. إن الدنيا بين يديك كطبق من القشدة .. أما أنا فلقد عبست في وجهي، وأؤكد لك أن الإنسان لا يشعر بالسعادة حينما يجلس تحت سيكستوس يتسول من الراحلين والمسافرين قروشًا معدودة .. ليس أسوأ من الشحاذة .. ولكن سيكستوس كان كريمًا معي وبفضله أمكنني أن أعيش .. وعندما أعود إليه مرة أخرى ربما شتمني وطردني لأنه يكرهك يا جراكوس.

– كثيرون غيره يكرهونني .. لسوف أجد لك عملًا طيبًا تقتاب منه ويوفر لك حياة وادعة.. حتى لا تعود لسيكستوس مرة أخرى ..

وكان الطعام وفيرًا جيدًا .. لم يتذوق فلافيوس مثيله من زمن طويل .. فأكل حتى امتلأ واعتدل قائلًا:

– والآن .. ما الذي تريده مني يا جراكوس .. ما زلت أعرف بعض الناس، بعض رجال العصابات، بعض القتلة وكثيرًا من القوادين .. والعاهرات ..

– لن أطلب منك شيئًا من ذلك يا فلافيوس .. ورجائي أن تحافظ على لسانك ..

– سأغلق فمي ..

وجرع كأس الخمر المعتقة وأنصت لمضيفه ..

– أريدك أن تبحث لي عن امرأة .. تبحث عنها وتشتريها .. إنها أمة، ولا تدخر جهدًا أو مالًا حتى تأتي لي بها، وسأضع تحت يديك كل ما تطلبه من نقود ..

– ومن أي نوع هذه المرأة؟ إن السوق مملوءة بالنساء بعد أن انتهت الحرب، ما شكلها، سوداء، بيضاء – صفراء – سمراء – عذراء أم ثيب – شابة أم عجوز – جميلة أم قبيحة – شقراء أم حمراء الشعر .. أي نوع تريد؟

فقال جراكوس في بطء، أريد امرأة معينة ..

– جارية؟

- نعم ..

- من هي؟

- اسمها فارينيا .. وكانت زوجة لسبارتاكوس.

وتأمل الرجل مضيفه لحظات وهو يرشف من كأسه وقال:

- آه .. وأين هي؟

- لا أعلم.

- وهل تعرفها؟

- نعم ولا .. فلم أرها في حياتي أبدًا ..

- آه ..

- كف عن آهاتك بحق السماء .. لقد استأجرتك كوكيل وعليك أن تنفذ وتسمع فقط.

- ولكنك تطلب مني احضار امرأة، لا تعرف أين هي، ولم ترها أبدًا .. فما أوصافها؟

- إنها لطويلة القامة رشيقة الجسم صدرها جميل، ألمانية الجنس ذات شعر ذهبي طويل وعينين زرقاوين .. أذناها صغيرتان مرتفعة الجبين مستقيمة الأنف لكنه صغير دقيق، ممتلئة الشفتين، تتحدث قليلًا من اللاتينية وتجيد اليونانية على الطريقة التراسية، ولقد وضعت مولودًا منذ شهرين، ولكن ربما مات المولود ..

- وما عمرها؟

- لست واثقًا، إنها بين الثالثة والعشرين – والسابعة والعشرين، لست متأكدًا ..

- ألا يجوز أن تكون قد ماتت؟

– يحتمل ذلك .. فإذا أخبرك أحد بوفاتها فعليك أن تتأكد بنفسك وتقدم لي البراهين المقنعة الكافية .. ولكني لا أعتقد أنها ماتت، فليست من ذلك النوع الذي يقدم على الانتحار.

– وكيف تثق بأنها لا تقدم على الانتحار؟

– أنا أعرف ذلك .. ولا يمكنني توضيحه، ولكني أعرف.

– ألم يقع في أيديكم – بعد هزيمة سبارتاكوس – كل ما في معسكر العبيد من نسوة وأطفال وبه عشرة آلاف نفس؟

– بل كانوا اثنين وعشرين ألف امرأة وطفلًا .. وزعن سبابًا للجنود .. وهذه فضيحة أخلاقية كبرى، ولكن كراسوس رفض أن يأخذ نصيبه .. فوهبه كله ليباع في السوق لحساب الخزانة العامة للدولة ..

– أما كانت فارينيا من بينهم؟

– نعم .. ولا .. وعلى أية حال فقد كانت زوجة الزعيم، والجميع يكن لها احترامًا عميقًا فلم يأت اسمها على لسانهن أبدًا .. إن المهمة ليست هينة يا فلافيوس ..

– نعم .. أعلم أنها عسيرة .. وكم تعطيني من الوقت؟

– ثلاثة أسابيع ..

وكد فلافيوس ذراعيه محتجًا وقال:

– آه .. عفوًا .. ولكن الزمن قصير جدًا، فربما لم أجدها في روما .. فاضطر لإرسال من يبحث عنها في كابوا أو سرقسطة أو صقلية .. بل قد تكون رحلت إلى اسبانيا أو أفريقيا ..

– بل ذلك هو الوقت المحدد لك .. أو تعود إلى جيفتك النتنة ..

– حسنًا .. لا تغضب يا جراكوس .. ولكن هب أني أحضرت لك بضع نساء بنفس تلك الأوصاف تختار ما تشاء ..

– لا أريد إلا فارينيا ..

وأفرغ فلافيوس كأسه في حلقه ثم قال:

– هل أستطيع أن أسألك سؤالًا قبل أن آوي إلى مخدعي .. وإذا أغضبك فأرجو ألا تجيب عنه ..

– ما هو؟

– لماذا هذه المرأة بالذات يا جراكوس .. دون بقية نساء الدنيا؟ آه .. أراك قد غضبت ..

– لا .. لم أغضب .. هيا إلى الفراش فقد شعرت بتعب من جراء السفر..

–٣–

وفي تلك الأيام لم تكن الدنيا كبيرة أو بمثل ذلك التعقيد الذي تشهده في أيامنا .. ففي أقل من الوقت المحدد، ظهر فلافيوس مرة أخرى في قصر جراكوس يزف إليه بشرى

نجاحه في مهمته .. وقد أفاده كرم وسخاء صديقه فبدا أنيقًا حليقًا موفور الصحة والثقة بالنفس .. وجلس حول كأس من الشراب مع جراكوس يلعب معه لعبة القط والفأر، وجراكوس يحاول أن ينصت صابرًا .. كان يوضح له كيف بدأت تحرياته وما لاقاه من صعوبات في البحث عن ضالته من بين عشرات الآلاف من الجواري والإماء ممن نجون من المذبحة التي قام بها الجنود الرومان في قرى العبيد انتقامًا لما لاقوه من الأهوال على أيدي رجالهن الأبطال.

ونفد صبر جراكوس فقاطعه: هل تتفضل فتدخل في الموضوع مباشرة ..

– حسنًا .. حسنًا .. كانت فارينيا في معسكرات الاعتقال حيث وضعت ابنًا، وأنت تعلم أن أبناء الرقيق لا يساوون ثمن وزنهن لحمًا .. فأمسك به أحد الجنود من ساقه ومضى يطوح به في الهواء يقصد قذفه إلى أحد الأعمدة وتهشيم رأسه، حين لمحه كراسوس لحينه، فأنقذ الوليد .. وراح يضرب الجندي بيديه حتى كاد يقتله .. وهذا أمر غريب لا يتوقعه الإنسان من كراسوس أليس كذلك؟

– لا يهمني ما تتوقعه أنت أو يتوقعه غيرك من كراسوس .. يا لك من وغد يا فلافيوس .. هل عثرت على فارينيا .. وهل اشتريتها لحسابي؟ هل هي ملكي الآن؟

– لم أستطع شراءها ..

وزمجر جراكوس وهو يهب واقفًا كالمجنون .. وتقدم نحو فلافيوس يمك برقبته حتى أوشك أن يكتم أنفاسه ..

– لماذا؟ لماذا أيها الخنزير القذر .. هل ماتت؟ قسمًا بالآلهة .. لأقتلنك شر قتلة ..

– أوه .. لا تفقد عقلك .. إنها لم تمت ..

وترك جراكوس رقبته .. وهو يلهث وقال: ولماذا لم تشترها إذًا؟

– أرجو أن تهدئ أعصابك يا جراكوس، فلا حق لك أن تعاملني على هذا النحو، فلست أحد عبيدك ..

– معذرة ..

– أنا لم أشترها لأنها لم تكن للبيع .. هذا كل ما في الأمر.

– وكيف؟ هل طلبوا فيها ثمنًا خياليًا إذًا؟

– لا .. إنها ملك كراسوس وتعيش في قصره، وهي ليست للبيع، ولقد انتهزت فرصة غياب كراسوس في كابوا وحاولت المستحيل مع مديري أعماله .. لكنهم رفضوا .. كان مجرد المناقشة في ذلك الموضوع عبثًا لا فائدة فيه، عرضت عليهم ذهب قارون فرفضوا .. وقالوا لو أردت شراء أية جارية أخرى أجمل منها وأفتن فلا يمانعون .. أما فارينيا .. فكلا وألف كلا!

– كيف علمت أنها فارينيا ..

– جميع العبيد يعلمون .. وقد أغريتهم بالمال حتى اعترفوا.

– وهل أدركت لماذا ابتاعها .. ولماذا يحتفظ بها؟

فضحك فلافيوس وقال:

– نعم بكل تأكيد .. إنه صريع غرامها!

– ماذا؟

– نعم .. كراسوس قد أحب .. وأحب بجنون أخيرًا ..

وصمت جراكوس لحظة ثم قال في بطء، ليرحمك الله يا فلافيوس لو تحدثت بذلك لأي مخلوق، لأن أتردد في صلبك فورًا.

– كيف تتحدث على هذا النوع؟ هل تحسب نفسك إلهًا؟

– لا .. لست من الآلهة يا فلافيوس .. ولكني أقرب كل حكام روما من الآلهة .. قريب جدًا منها بحيث أملك أن أعلقك فوق الصليب لي تهمة تخطر ببالي .. وحذار أن تنبس بكلمة لأي مخلوق .. حذار!

- ٤ -

وانطلق جراكوس على قدميه في شوارع روما قاصدًا الحمامات .. وكان الوقت مساء وخرج جميع أهالي روما يستروحون النسيم القليل في الطرقات .. وبدت روما في أبهى زينتها وغصت بالنساء من مختلف الطبقات يتمخطرن في دلال .. هذه هي روما معبودة جراكوس .. روما العاهرة المتبذلة التي تضم بين جوانبها ألوانًا من الفضائح المثيرة .. وبالرغم من كل ذلك هو يحبها .. وتذكر أسطورة السيدة وابنها الذي انتزع قلبها من بين أحشائها ومع ذلك لم تفقد حبه لها .. ومرت به فصيلة كبيرة من الحرس بأعلامها وبنودها وموسيقاها العسكرية .. لقد لبس القط ثوب الأسد أخيرًا .. ولعب الفأر حينما غاب آكله .. فياله من عالم غريب حقًا!

وولج جراكوس باب الحمامات.. وكان يعلم أنه سيقابل كراسوس الذي لا يتخلف أبدًا في مثل ذلك اليوم عن الاستحمام.

وقد رآه فعلًا في غرفة الملابس وقد خلع ثيابه ووقف في المرآة يتأمل جسمه القوي الممشوق.

وكانت الحمامات تقوم في تلك الأيام بما تقوم به المنتديات الراقية في أيامنا الحاضرة، يجتمع فيها رجال المال والسياسة والحرب.. على هيئة (شلل) يتبادلون فيها ما يعن لهم من مختلف الشئون، وما كاد جراكوس يظهر في غرفة الملابس حتى حياة الكثيرون – وشاهد بطرف عينيه القائد كراسوس وقد خلع ثيابه ووقف يستعرض جسمه أمام مرآة كبيرة.

وتجمع أناس كثيرون حول جراكوس يسألونه في اهتمام عن آخر أنباء الفتنة في اسبانيا وضرورة حياد مصر بين النزاع الدائر مع قناصل الشرق والغرب، حتى يستمر تدفق القمح اللازم لإطعام روما وجيوشها، وعما يحدثه اليهود في فلسطين من متاعب جمه ومشاكل كثيرة تقض مضاجع الجمهورية وغير ذلك من أمور، وكان كراسوس يراقبه وهو

يبدي تعليقاته وينشر أراءه هنا وهناك.

وخلع جراكوس ملابسه، وسار مع كراسوس إلى حوض الماء الساخن ووجدها الأخير فرصة طيبة للاشتباك مع جراكوس الذي كان يكرهه في أعماق قلبه فقال له مستفزًا:

– ومنذ متى كنت حجة في أنباء مصر كما تحسب نفسك في شئون الأقطار الأخرى يا جراكوس؟

– أتعني ما أخبرت به أولئك السادة منذ قليل؟ إني أطلع على كل ما يرد لنا من تقارير إن كنت لا تعلم!

– تطلع على كل التقارير؟ وهل هذا يكفي حتى تبدي آراء قاطعة؟

فضحك جراكوس وقال: وهل سافرت أنت إلى مصر؟

– لا .. لم أزرها مطلقًا ..

– حسنًا .. حسنًا .. يا كراسوس، لو زرتها بنفسك لاقتنعت بصدق آرائي، وعلى أي حال لماذا نتشاجر دائمًا ويسفه كل منا آراء الآخر وكأننا كلاب وحشية؟

– لست أدري .. ربما كانت أعصابي على غير ما يراه، ومما يجعلني أفكر دائمًا كيف أكسب صداقتك .. هل تريد مالًا؟ لا .. فأنت تملك منه الكثير.

– إنني لا أهتم بالمال ..

– ماذا إذًا؟

– بل أريد أن أشتري منك إحدى الجواري ..

وتنفس جراكوس الصعداء فلقد قال ما في نفسه.

– طباختي الحسناء على ما أظن؟ ولولا صلعتك يا جراكوس لخمنت أنها حلاقتي .. أم لعلها إحدى الراقصات الغانيات؟ إنني لأعلم بأنك لا تهتم كثيرًا بفتيات الفراش

فماذا حدث لك؟

فزمجر جراكوس وقال: كف عن هذرك، إنما أريد امرأة معينة يا كراسوس، أريد فارينيا!

– من؟

– فارينيا .. ولن تلعب لعبة القط والفأر معي ..

– يا عزيزي جراكوس .. إنك تحلم . من الذي أنبأك بوجودها في قصري؟

– إن لدي من يصدقني المعلومات .. انصت إلي يا كراسوس .. لنتحدث بصراحة دون لف أو دوران .. ودون مساومات لا طائل تحتها، سأدفع لك أكبر ثمن دفع في الدنيا من أجل جارية في روما .. سأدفع لك مليونًا من الجنيهات وسأدفعها ذهبًا نضارًا .. بل سأدفعها فورًا إذا سلمتني فارينيا.

وضم كراسوس ذراعيه فوق صدره .. وصفر مفكرًا .. وقال:

– يا لها من ثروة طائلة! لو سمع بها الشعراء لوضعوا لها القصائد والمعلقات .. ولظنوا أنك تدفع هذا المبلغ لإحدى ملكات الجمال، لا من أجل امرأة جف جلدها .. ثم ماذا يقولون عني لو قبلت منك هذا المال الوفير .. سيحكمون على كراسوس بأنه لص أثيم ..

– كف عن هذرك معي ..

– يا عزيزي جراكوس .. أنت الذي تهرف .. فليس عندي ما أبيعه لك ..

– لقد عرضت عليك عرضًا لن أرجع فيه يا كراسوس ..

– وسمعت مني كلامًا لن أرجع فيه يا جراكوس ..

وهتف جراكوس غاضبًا:

– سأضاعف لك القيمة واجعلها مليونين!

– ما سمعت أن أحد رجال السياسة يمتلك مثل تلك الثورة.

– مليونان .. إما أن تقبلها أو ترفضها ..

فقال كراسوس وهو يمط شفتيه:

– أشعر بالملل حينما أسمعك .. ثم تركه وانصرف عنه.

–٥–

فارينيا .. فارينيا .. نرجوك أن ترتدي ثيابك وتسمحي لنا أن نزينك فالسيد على وشك الوصول، وسوف تجلسين وتتناولين العشاء معه .. لماذا تعقدين الأمور لنا يا فارينيا؟

– لا أقصد تعقيد الأمور لكما ..

– ولكنك تسببين لنا الأذى يا فارينيا .. تقولين إنك جارية ولا تريدين أربعة من الجواري يقمن بخدمتك ولا تكفين عن البكاء . أنت تدركين ما تعانيه الجارية من قسوة سيدها أم لعلك نسيت ذلك حينما كنت وسبارتاكوس تمتلكان زمام الدنيا .. هل نسيت ما يتعرض له العبد من أذى لأتفه الأسباب؟

– لماذا تقولين ذلك .. ولماذا أسمعه منكن دائمًا، هل رأيتموني أتعالى عليكن مرة؟

– لا ذنب لك في هذا يا فارينيا .. إن السيد هو الذي رفعك من مرتبة العبيد ووضعك جوهرة لامعة فوق صوره .. إنه يحبك يا فارينيا ومن أجل ذلك هو يوسعنا ضربًا وأذى إذا لم ترتدي له أجمل الثياب .. إنه لا يعذبك .. ولكنه يجلدنا بالسياط.

– دعنه يضربني ..

– إنه لن يفعل ذلك أبدًا يا فارينيا ..

– حسنًا .. حسنًا .. اتركني أرضع ابني حتى ينام ثم ألبسني ما شئتن من الثياب ..

أليس هذا ما تردن؟ كل ما أرجوه أن تتركني أرضع ولدي .. إنه بدأ ينام ..

ونظرت إلى وليدها في حنان . سيشب رجلًا قويًا حكيمًا مثل أبيه .. إن له نفس العينين الجميلتين الزرقاوين وابتسامته الملائكية .. ووضعته في سريره الصغير في رفق . ثم تركت نفسها للجواري ..

أربعة من الجواري صدرت إليهن الأوامر بأن يشرفن على زينتها وتستعد للعشاء مع الرجل الذي اشتراها . فوقفت بينهن مستسلمة، وخلعن ثيابها وشرعن في تدليك جسمها من شعر رأسها إلى أخص قدميها وهي عارية كما ولدتها أمها .. وكانت ما تزال فاتنة جميلة القوام، ممشوقة القد، ممتلئة الصدر كأنها فينوس! ثم أرقدنها على أريكة بعد أن غطينها بملاءة، ونثرن المسحوق العطري الأبيض حول ذراعيها البضتين وفوق جبينها، والوردي الخفيف على وجنتيها، ثم الأحمر الداكن الثقيل على شفتيها .. وكحلن عينيها وحواجبها .. وبدأن في تنسيق وتمشيط شعرها الذهبي الطويل على شكل هرم جميل من الضفائر اللولبية ثبتنه بدبابيس من الذهب والفضة . وأقبلت حاملة المصباغ فوقفت فارينيا عارية – بدون الملاءة – كأنها تمثال بين يدي صانعه .. ومضت رئيسة الجواري تضع تاجًا من ماس حول رأسها وقرطًا كبيرًا من الذهب في أذنيها . وعقدًا من الزمرد حول رقبتها الطويلة .. ثم بعض الأساور الثمينة حول ذراعيها . وخاتمين مرصعين بالياقوت في كل من خنصريها .. وبعد ذلك ألبسنها ثوبًا فضفاضًا رقيقًا من القطن الهندي الفاخر لا يضاهيه أثمن أنواع الحرير في العالم .. ووضعن على رأسها وشاحًا مطرزًا أبيض، وفي النهاية جعلوا حول وسطها حزامًا من الذهب المحلى بالمجوهرات ليبرز فتنة صدرها وقوامها الممشوق الطويل ..

لم يدخر سيدها وسعًا في أن يجعلها تبدو كإحدى الملكات .. إن ما تحمله من مجوهرات يشتري عرشًا بأكمله! وكان الثوب القطني شفافًا – فارتدت فوقه عباءة حريرية بيضاء ضمت أطرافها فوق صدرها – وكانت تفعل ذلك دائمًا كلما دعيت للعشاء.

واستقبلها كراسوس في انحناءة طويلة كأنما يستقبل امرأة القيصر أو كليوباترا ..

وتأملها في اعجاب وهو يقول:

– يا حبيبتي .. لماذا تخفين ذلك الصدر الجميل عن العيون؟

لم لا تتركي العباءة تنسدل حرة حتى أرى ما تحتها من ثوب ثمين؟ إن ذلك الثوب قد كلفني عشرة آلاف جنيه .. ومن حقي أن أرى كيف يبدو فوق جسمك الجميل ..

كان يقول ذلك دائمًا .. وفي هذه الليلة كررها .. ولدهشته أطاعته في بساطة .. فهتف متعجبًا

– واعجبا! إن من يسمع ذلك الوغد باتياتوس وهو يصفك بالقطة المتمردة المتوحشة، لابد أن يصعق حينما يراك طائعة لينة، خاصة هذا المساء ..

– أجل ..

– ترى ما الذي أحدث ذلك التغيير في سلوكك نحوي؟ وعلى أية حال .. فأنا سعيد بذلك .. فأنت في قمة جمالك الليلة يا فارينيا .. فإلى متى وأنا أركع عند قدميك ملتمسًا قربك ورضاك؟ ألم أكن رفيقًا بك كريمًا معك؟ ألا تقارنين ما أنت فيه من عز وسؤدد بمناجم الملح وشظف العيش الذي كان ينتظرك؟

أما كان باستطاعتي – وما زال – أن أنتزع منك وليدًا وأقتله أو أبيعه في سوق العبيد كأي جرو صغير؟ أيرضيك ذلك لو فعلت؟

– لا يرضيني ..

– شد ما يؤلمني أن أحدثك بهذه الوسيلة.

– لا ترع .. تستطيع أن تحدثني بأي وسيلة شيئت .. ألت مالكي؟

– لا .. لا .. إن الحقيقة عكس هذا تمامًا .. فأنت مالكتي وما أنا إلا عبد يلتمس رضاك يا فارينيا . وكل رجائي أن تبادليني العاطفة . وأنال وصالك ..

– تستطيع أن تفعل بي ما تشاء .. فما أنا إلا جارية.

– لا أريد أن أغتصبك كرهًا يا فارينيا، أو كما نفعل نحن مع إمائنا .. إن قصري كما ترين حافل بالجواري الفاتنات .. ولكني لا أريد منك الجسد فحسب . وإنما الروح أيضًا .. إذا أسعدتني بذلك فتحت أمام عيني أبواب المجد .. أنا وأنت .. نستطيع أن نحكم العالم ..

وأجابته في صوتها الجامد الخالي من الحياة أو الشعور كما تفعل دائمًا..

– لا أرغب في أن أحكم العالم .. ثم لماذا تهددني دوامًا بإنزال الأذى بولدي، أتحسب أنك حين تفعل ذلك أرضخ لحبك؟

– معذرة وعفوًا يا فارينيا .. إنك تثيرين أعصابي .. ومنذ اشتريتك وأنا أدور معك في حلقة مفزعة .. أرجوك أن تجلسي وتأكلي معي .. إن هذه المائدة تعادل ثمن «فيلا» وعلى الأقل أسعدي بأقل شيء تأكلينه حتى ولو كسرة واحدة .. واسمحي لي أن أقص عليك فكاهة لطيفة حدثت اليوم .. ربما وجدتها مسلية .. كلي .. كلي يا عزيزتي.

– إن نفسي تعاف طعامك الفاخر .. بل لو أكلت منه لسقمت.

– بل إنه شهي .. هذا الدجاج المشوي .. وذلك البط المحمر .. آه .. كنت أحدثك عن شيء طريف حدث اليوم .. هل سمعت عن جراكوس عضو الشيوخ الخنزير البدين؟ تقابل معي في الحمام .. هذا الوغد يكرهني ومن الغريب أني لا أبادله ذلك الشعور .. آه .. أنت لا تعرفينه فهو أقوى رجل في روما . نشأ من الحضيض وأثرى ثم اشترى أصوات الناخبين . ويلعب بخيوط السياسة بين يديه الآن . ولقد ظننت أنه يريد مني شيئًا .. فظل يتبعني ببصره حتى أفرغ ما في جوفه أخيرًا .. وطلب أن يشتريك .. وحينما رفضت ضاعف لي الثمن .. وهو – بيني وبينك – ثروة أشتري بها مملكة لو شئت .. ولكني سخرت منه وتركته مغيظًا.

وسألته فارينيا:

– ولماذا لم تبعني له؟

– أبيعك له .. أواه يا عزيزتي لو شاهدت قفاه محمرًا من شدة الغيظ! أم لعل هذا الأمر لا يعنيك؟

– إنه لا يعنيني ..

وأزاح كراسوس الصحاف جانبًا وحملق فيها .. ثم ملأ كأسه وأفرغها في جوفه .. وملأها مرة ثانية وجرعها .. وفي ثورة غضب طوح بالكأس إلى مرآة كبيرة في الحائط فهشمها . وزمجر حانقًا!

– لماذا تكرهينني؟

– وهل ينبغي أن أحبك يا كراسوس؟

– أجل لأني أعطيتك ما لم يعطه لك سبارتاكوس.

– لا .. لن تستطيع ذلك ما حييت.

– لماذا؟ لماذا؟ من كان سبارتاكوس .. هل كان إلهًا؟

– لم يكن سبارتاكوس إلهًا .. كان شخصًا بسيطًا رقيقًا .. كان عبدًا .. هل تفهم معنى ذلك؟ . كلا .. لأنك لم تعش بين العبيد ..

– وهبي إني أرسلتك لأحد الحقول وزوجتك فلاحًا قذرًا .. أكنت تحبينه وتتزوجينه؟

– لم ولن أحب أحدًا غير سبارتاكوس، ولكني ربما استطعت العيش مع فلاح قذر كما تسميه . لأنه ربما كان مثل سبارتاكوس، ولو أن هذا كان عاملًا في منجم وليس فلاحًا .. ربما وصفتني بالغباء أو الجهل .. ولكن سبارتاكوس كان ملاكًا نقيًا.

وأمسك كراسوس جماح غضبه وسألها:

– نقيًا؟ . ماذا تقصدين؟. طالما صبرت على هذا الهراء الذي تقولينه .. وهل كان سبارتاكوس إلا عدوًا للمجتمع؟

كان قصابًا محترفًا وقاتلًا خارجًا عن القانون .. كان عدوًا لكل شيء جميل .. عدوًا

لروما مبعث الحضارة والفن، روما التي نشرت السلام والعلوم .. أراد أن يحرق التراث المجيد ويهدم كل ما حققناه من أمجاد .. كم قصرًا أشعلتم فيه النيران لأنكم لم تفهموا ولم تعرفوا المدنية .. ماذا فعلتم طيلة أربعة أعوام حاربتم فيها روما .. كم من الآلاف قتلتموها .. وكم من آلاف راحت ضحية عنادكن وثورتكم .. لقد جلبتم الحزن والأسى على هذا العالم لتحقيق حلم كريه . هو الحرية . الحرية في التدمير!

وجلست أمامه صامتة .. وأطرقت برأسها إلى الأرض.

– لماذا لا تجيبي؟

فأجابته في هدوء:

– لا أعرف كيف أرد على أسئلتك لأني لا أفهم في تلك الأمور شيئًا ..

– ولكني سمعت منك ما لم أسمعه من إنسان .. ماذا كنت تقصدين حينما قلت أن سبارتاكوس كان نقيًا .. وهل أنا غير ذلك؟

– أنا لا أعرف الرومانيين ولا أعرفك .. فقط أعرف سبارتاكوس ..

– وهل تحسبين أن الرجل النقي الطاهر .. يثير فتنة تقلب الدنيا رأسًا على عقب ..

– إننا لم تحدث فتنة .. كل ما أردناه هو أن نرسي الحرية راسخة في أركان الدنيا .. كل ما أردناه وهدفنا إليه هو نشر السلام والطمأنينة والعدالة بدل الخوف والكراهية والاستبداد والطغيان .. كنا نريد أن تتركونا – نحن العبيد – أحرارًا طلقاء نعيش في سلام .. أنا لا أستطيع أن أتناقش معك لأني جاهلة، بل أنا لا أجيد التحدث بلغتك جيدًا ولا أعرف كيف أعبر عما يجيش في نفسي .. ولم يكن ذلك شعوري تجاه سبارتاكوس .. كنا نتحدث بلغة العيون ونفهم بعضنا تمامًا دون أي خلط أو ارتباك .. لماذا ينقسم العالم قسمين .. سادة وعبيد؟

وعندئذ قال كراسوس في رقة:

– ولكنك تعيشين الآن في روما يا فارينيا .. أركبتك بجواري في محفتي الخاصة وشاهدت مجد روما وقوتها وعظمتها .. إن الطرق الرومانية تمتد في كل بلاد الدنيا، وجنودنا ينتشرون في بلاد البرابرة يعلمونهم فن الحياة والمدنية وينيرون ظلام العقول الدامس، وأعلامنا تخفق فوق الصاريات في كل البحار .. إن جيوشنا لم تتأثر قوتها أو عددها رغم تلك الألوف المؤلفة التي قتلت في حرب العبيد وما زالت تموت في حروبنا الخارجية .. أكان يدور بخلدكم أن في استطاعتكم أن تهزموا روما الخالدة .. روما سيدة العالم .. في غمضة عين وتمسحوها من فوق الخريطة بجرة قلم؟ . آه .. أنت تبكين الآن على سبارتاكوس وهذا خطأ منك .. فالدنيا هي التي قتلت سبارتاكوس .. هي التي قبلت له ظهر المجن بعد أن كان تحت أقواس النصر .. سبارتاكوس قد مات .. أما أنت الآن فحية ترزقين، ويجب أن تعيشي.

– أنا لا أبكي على سبارتاكوس .. بل إن أحدًا لا يفكر في البكاء عليه .. لأنه لم يمت .. بل هو في قلب الناس جميعًا.

– أواه يا فارينيا .. ما أحمقك .. ليس سبارتاكوس بالنسبة إليك إلا شبحًا يقض مضجعك ويعكر صفو حياتك .. ولسوف يختفي غدًا ذلك الشبح من حياتك .. بل من ذكرى العالم كله، لن يتذكره مخلوق بعد عشر سنوات .. لماذا؟ لأن سبارتاكوس لم يشيد شيئًا خالدًا .. بل كان يهدم والناس لا تتذكر إلا المباني والمنشآت ..

– بل لقد شيد الآمال ..

– ها أنت تتحدثين كالأطفال .. آمال؟ آمال من؟ وأين تلك الآمال الآن؟ إنها أوهام يا فارينيا .. ولقد ذرتها الرياح كالرماد .. أو كالتراب .. ألا تدركين أن عجلة الحياة لا يمكن أن تنطلق إلا إذا كان في الدنيا أقوياء يحكمون وضعفاء يمثلون؟ .. فارينيا .. أنا أحبك .. وبإخلاص وصدق .. صدقيني ولكن ..

– ماذا؟

– هذا الشبح الذي يحول بينك وبيني .. أغمضي عينيك ولسوف يولي لنا ظهره يا

فارينيا ..

– كان من أنبل وأشجع من عرفت .. وهو حبي الوحيد .

– ربما كنت مثله .. أعطيني فرصة وسأثبت لك ذلك.

فهزت رأسها وقالت:

– لا فائدة! كيف أشرح لك ما في قلبي؟ إن العلاقة بين الرجل والمرأة من العبيد تختلف تمامًا عن مثلها بين الأحرار فالعبد والأمة متساويان .. يتساويان في العمل .. يتساويان في الضرب بالسياط، يتساويان في الموت، يتساويان حتى في الحفرة المجهولة التي قد تضم أجسامنا .. أو بطون الصقور التي تنهشنا قطعة قطعة! وفي البداية حملنا الرماح والسيوف – نحن النساء – وحاربنا بجانب إخواننا، وكان سبارتاكوس رفيقي وزوجي .. لم ينظر لامرأة غيري ولم أتخل عنه ولم يتخل أبدًا عني، إذا جرح شعرت بالدماء تنزف من قلبي، وحينما مات صديقه كريكسوس وضع رأسه في حجري وجعل يبكي كالطفل الذي فقد أمه، وكنت أشاركه الأسى وأبكي لبكائه، وعندما شعرت بآلام الحمل والمخاض كنت أضع رأسي فوق ركبته وأبكي، ولم يدخر أبدًا وسعه في تخفيف آلامي .. أواه .. كيف أحدثك عنه؟ ذلك العطوف الطيب الرقيق الذي يمتلئ قلبه بحب الناس جميعًا .. كان يحتضن رفاقه ويقبلهم كلما رآهم، في الوقت الذي لم أشاهد فيه رومانيًا يعانق إنسانًا ويقبله إلا لغرض أثيم .. علمنا الأمانة والنزاهة والشرف، فلم نضع أبدًا حراسة على مخازن تموينا أو غنائمنا .. حتى في أحرج الأوقات وأشد الأزمات لأننا كلنا نؤمن بأن الفرد للمجموع والمجموع للفرد .. فلماذا يمد أحدنا يده ليختلس لنفسه شيئًا .. ولم يتشاجروا أبدًا وكانوا آلافًا مؤلفة لأنهم تعلموا أننا أخوة في البشرية والكفاح، مبدؤنا التسامح والتفاهم، وعلينا أن ندخر قوتنا وأعصابنا لعدونا ونكسب الحرب فنحقق أهدافنا السامية ونعيش أحرارًا .. من أجل كل ذلك أطاعوه وأحبوه وكانوا يلقون بأنفسهم في المنون ويموتون كالفراش حول النور بلا أدنى تردد أو أحجام .. لم نكن قتلة ولا قصابين كما وصفتنا وكما وصفت سبارتاكوس! أتعرف إذًا لماذا أحببت سبارتاكوس. وسأظل

أحبه حتى لو انتزعت قلبي من صدري؟

وقال لها كراسوس:

- اذهبي .. اغربي عن وجهي .. عليك اللعنة.

-٦-

ومرة أخرى أرسل جراكوس في طلب فلافيوس .. كانا وهما يجلسان معًا أشبه بتوأمين شكلًا وحجمًا وشيخوخة .. وكان كل منهما صنو الآخر في طريقة الوصول إلى المجد والثراء .. غير أن جراكوس كان أشد ذكاء من فلافيوس وعرف من أين تؤكد الكتف، فلم يجاهر بما يعتقده أو يُؤمن به من أفكار تقدمية، ولم يأتمن مخلوقًا في سر .. وكان يبادر دائمًا بمهاجمة أتباعه والقضاء عليهم بكل سلاح عرفه، على نقيض فلافيوس الذي طرد من مجلس الشيوخ وصودرت أمواله وصار منبوذًا لصراحته وغفلته .. وقال فلافيوس:

- ماذا تريد؟ فارينيا مرة أخرى؟ ماذا دهاك يا جراكوس حتى شحب لونك وكأنك لم تذق النوم منذ ليال؟

- ومم تخاف؟ ما جحدت إنسانًا أدى لي صنيعًا! مم تخاف إذًا؟

- بل أخافك .. أخاف مما ستطلبه مني .. تستطيع أن تدعو الحرس فيقتلوني في غياهب السجن ثم تلفق لي تهمة تكفي لصلبي . لماذا لا تستعين بغيري وبيدك المال والسلطة وتزج بي .. أنا الذي انتهيت وكل أملي أن أعيش في سلام .. لماذا لا تستعين بأصدقائك؟

- لا .. لا أستطيع أن أشرك غيرك في سري؟

- لماذا؟

- حتى لا يجعلوني أضحوكة الموسم على كل لسان .. لقد عرضت مليونًا من

الجنيهات على كراسوس ليعطيني فارينيا فرفض، وضاعفت الثمن إلى مليونين فأهانني وهزئ بي.

ولعق فلافيوس شفتيه وقال في لهم شديد:

– مليونان؟ الدنيا كلها في كيس صغير! وهل عرضت كل ذلك لتشتري امرأة؟ يا للسماء يا جراكوس . لماذا تريدها؟ وما أحب أن أدس أنفي في أسرارك ولكنك تكلفني بأمر ولن أتحرك من هذا المكان حتى أعرف لماذا تريدها بكل هذه التضحية؟

فأجابه جراكوس وهو ينظر إلى السقف:

– لماذا؟ لأني أحبها!

– ماذا؟

وأومأ جراكوس برأسه . لم يكن يشعر وقتئذ بعظمته وجبروته كانت عيناه تدمعان!

وهتف فلافيوس:

– يا للسموات! حب؟ وما هو الحب بحق الشيطان؟ أنت لم تتزوج أبدًا .. ولم تضع أصابعك على امرأة أبدًا .. ومع ذلك تشتري جارية بثروة قارون لأنك تحبها؟ وأي فائدة تجنيها وقد بلغت سن اليأس يا جراكوس؟ أما أنا غبي أو أنت مجنون!

وزمجر جراكوس قائلًا: بل أنت غبي .. لقد أمضيت سنوات حياتي الطويلة وأنا عدو للنساء حتى صرت كما تراني كهلًا بدينًا .. أو كما تقول لا أصلح لهن .. قد يكون كل ذلك صحيحًا، ومع ذلك فقد أحببت فارينيا .. حبًا يجعلني أزحف على ركبتي أمامها وألتمس أن تنظر إلي نظرة عطف وفهم .. وتصارحني بأنها تهتم بي أدنى اهتمام، لا أعرف ولا أبالي بما يكنه كراسوس نحوها، ولكني أعلم ما تكنه هي له .. ويقينًا أنها تمقته وتكرهه، فهو الرجل الذي حطم زوجها، ولو استطاعت أن تقتله لما أحجمت.

فقال فلافيوس: أراك سرحت بخيالك بعيدًا وكأنك وضعت قلب فارينيا في جيبك يا

جراكوس، كيف تأكدت من شعورها نحوه، وقد رفض أن يبيعها بمليوني جنيه.

وصاح جراكوس:

– تبًا لك .. أنا أريد هذه المرأة بأي ثمن ..

وفغر فلافيوس فاه وقال: أتعني .. المليونين؟

– أجل .. أجل ..

– وهل أنت مستعد لما عساه يحصل . لا أقصد نفسي طبعًا فلسوف أقتنص المال وأفر هاربًا إلى مصر حيث ابتني قصرًا وأشتري بعض الجواري من الاسكندرية وأعيش بقية حياتي كإمبراطور .. أستطيع أنا أن أفعل ذلك، أما أنت فلا يا جراكوس فأنت عضو في مجلس الشيوخ وقوة يعتد بها .. لن تستطيع الهرب يا جراكوس إلى أي مكان مع تلك الجارية .. هل فكرت في ذلك؟

– لن أجهد نفسي في التفكير في ذلك الآن.

– أحقًا؟ وأنذرك ما الذي سيفعله كراسوس بك؟ لم ينتصر أحد عليه أبدًا .. ولم نسمع أن مخلوقًا استطاع أن يسلب شيئًا منه .. هل في وسعك أن تبارزه؟ هل تستطيع أن تقف في وجهه وقد وصل إلى قمة مجده وقوته؟ سيدمرك يا جراكوس .. أجل سيقتلك في غمضة عين .. حذار أن تلعب بالنار!

وقال جراكوس: سنرى ما يستطيع أن يفعله!

– ثم هب أني أحضرتها .. ومليونان من الجنيهات كفيلة بأن تجعلني أحضر الشيطان بنفسه .. كيف تضمن أنها لن تبصق في وجهك؟ حقًا ربما كرهت كراسوس لأنه قتل زوجها .. ولكن من العامل المحرك لكراسوس؟ من الذي قلده امرة الجيش وأعطاه السلاح والعتاد؟

وأومأ جراكوس برأسه وقال: أنا ..

– اذًا .. لأي سبب تحبك؟ ما الذي ستقدمه لها .. وأنا أدرى بك؟ إن المرأة لا تريد من الرجل إلا شيئًا واحدًا نحن نعلمه معًا؟ وأنت فاقده، فلم لا تواجه الحقيقة بشجاعة؟

– بل سأهبها وأعطيها كل ما تحلم به من سعادة وهناء ..

– لا .. إن الجارية لا تحلم إلا بأن تعتقها وتصير حرة .. فهل تفعل ذلك؟

وفكر جراكوس برهة ثم قال:

– أتعتقد أنها تهبني ليلة واحدة .. نظير عتقها؟

– ليلة واحدة .. ماذا ستفعل بها في تلك الليلة؟

– حب؟ لا .. ليس الحب . بل التقدير والاحترام والعطف لا .. بل الاعتراف بالجميل .. لنقل ليلة تعترف بها بالجميل . فتنهد فلافيوس وقال: ما أغباك وأحمقك!

– انصت إلي يا فلافيوس .. قد أكون أحمق، فهذا شأني قل لها أني سأهبها الحرية .. مهما حدث لي من كراسوس .. أنقل لها وعدي وأقسم بأني لن أحنث أبدًا .. وأنا قادر على تحقيقه، وروما تعلم ذلك .. فهل تفعل؟

وأومأ فلافيوس موافقًا .. واستطرد جراكوس مفكرًا:

– وعليك أن تدبر وسيلة خروجها من روما .. هل تستطيع ذلك؟

وأومأ فلافيوس برأسه مرة أخرى ..

– إلى أين؟

– سنرحل إلى بلاد الفال. ستكون هناك في مأمن، فلسوف يأمر كراسوس بمراقبة الموانى والطرقات – أما شمالًا فسنشق طريقنا بما أعرف من أصدقاء، وبالمال أيضًا – وسأعاونها في الوصول إلى مسقط رأسها .. ألمانيا .. إن شاءت.

– وكيف تخرجها من بيت كراسوس؟

– هذه هي المشكلة .. إنه يقضي ثلاثة أيام من كل أسبوع في الريف ..

– هذا إلا أبت ترك كراسوس طبعًا ..

– مفهوم ..

– وربما أرادت اصطحاب وليدها .. فلا أمانع، وسأتولى العناية به هنا ..

– حسنًا ..

– أتريد المليونين مقدمًا .. أليس كذلك؟

فقال فلافيوس في حزن: أجل .. ذلك أفضل ..

– حسنًا .. المبلغ تحت تصرفك .. إنه معي .. خذه .. كله ذهب، وليس صكًا، أم لعلك تريد صكًا على عملائي بالإسكندرية؟

– لا .. الذهب أجمل منظرًا ..

– صدقت .. ولكني أحذرك من أن تعبث بي يا فلافيوس .. سأعرف كيف أصل إليك ..

– اللعنة يا جراكوس .. إن كلمتي لشريفة صادقة مثل كلمتك.

– حسنًا ..

– كان الله معك يا جراكوس ..

–٧–

وشاهدت فارينيا في نومها هذا الحلم، رأت كأنها واقفة أمام لجنة التحقيق في مجلس الشيوخ .. حيث جلس السادة الذين يحكمون العالم في مقاعدهم الضخمة يرتدون ثيابهم البيض الفضفاضة، وكانوا جميعًا يحملون وجهًا واحدًا .. هو وجه كراسوس! وكانوا في

جلستهم يميلون للأمام وقد ارتكزوا بذقونهم على أيديهم .. وعبست وجوههم في اهتمام وثقة بالنفس .. كانوا يمثلون السلطة والقوة .. ومجرد التطلع إليهم يبعث الرعد في القلوب ..

ورأت فارينيا .. كأنما هم يستجوبونها كشاهدة إثبات ضد سبارتاكوس .. وكانت ترتدي ثوبًا واسعًا من القطن، وخالجها شعور قوي بأنه ملوث من الأمام بلبن الرضاع ..

وجه إليها أحدهم سؤالًا: من كان سبارتاكوس ..

وقبل أن تبدأ في الإجابة سألها آخر:

– لماذا شرع في تحطيم روما؟

– وما إن شرعت في الإجابة حتى بادرها ثالث بسؤالها:

– ألم يكن يعلم بأن القانون الروماني يحرم القتل؟

ثم سألها رابع: لماذا قتل كل من وقع تحت يده في الأسر؟ ولماذا كره كل ما هو جميل وحطم متاحفنا ونهب كنوزنا؟

وانطلقت تدافع عنه بشدة .. لكن أحدهم قاطعها وهو يقف صائحًا مشيرًا إلى صدرها متسائلًا:

– ما هذا الذي يلوث قميصك؟ ..

– لبن ..

واستبد الغضب بكل الموجودين .. غضب شديد مدمر .. فشعرت بالفزع يهز كيانها بمثل ما لم تشعر به من قبل، وفجأة وبعد لحظة أحست بهدوء غريب يغمرها، الأمر الذي دهشت له كثيرًا وقالت في نفسها: إن هذا لا يحدث أبدًا إلا إذا كان سبارتاكوس بجانبي ..

وأدارت رأسها فإذا بها ترى سبارتاكوس – وبكل يقين – واقفًا بجانبها وهو يرتدي

ثياب الميدان .. حذاءه الجلدي الطويل وثوبه العسكري الرمادي، وقبعة من القماش على جانب من شعر رأسه الكثيف .. ولم يكن يتحلى بأي مجوهرات .. لا أقراط .. ولا خواتم أو أساور .. وكان نظيفًا حليق الذقن بادي الشجاعة موفور الثقة، وضاء المحيا باسم الشفتين .. وشعرت بقلبها يكاد يقفز سرورًا لمرآه .. ها قد وصل أخيرًا ليواجه أولئك الوحوش الذين أفزعوها ولم تعد بمفردها ولن ينالوا منها شيئًا

وسمعته يسألها:

– ما الذي تفعلينه هنا يا حبيبتي؟ ..

– كانوا يستجوبونني ..

– ومن الذي يجرؤ على ذلك؟ ..

فأشارت بيدها إلى خمسين حاكمًا في القاعة .. لاحظت أنهم قد جمدوا في مقاعدهم ساكنين صامتين مذهولين .. وقالت:

– هؤلاء الناس .. لقد أفزعوني ..

– ها أنت ترين أنهم أشد منك فزعًا ..

كان يتكلم ببساطته المعهودة .. ثم ابتسم وأخذ يدها وقال:

– هيا بنا يا فارينيا ..

وخرجا من قاعة الشيوخ إلى الطريق .. يمشيان الهويان كأي خطيبين خجولين .. كانا يمران بالناس، والناس تمر بهما دون أن يلفتا الأنظار .. وكان يقول لها في ثقة:

– سأكون دائمًا معك يا حبيبتي .. ولن أتخلى عنك أبدًا .. ولن تتركيني يا فارينيا .. فأنا أريدك .. أنا أريدك ..

– وأنا أيضًا أريدك .. تعال معي ..

– إلى أين؟ ..

– إنني أقيم في بيت شخص اسمه كراسوس.

وعندئذ توقف فجأة وكأنما تسمرت قدماه في الأرض .. وترك ذراعها وأمسك بكتفها، ومضى يحملق في وجهها كأنما يبحث في أعماق عينيها عن إجابة لسؤال ما .. وأشار إلى صدرها وسألها: ما هذا؟

– اللبن الذي أرضع به والدك!

– ليس لي ولد! ..

وبدا عليه الخوف المفاجئ – وتقهقر مبتعدًا عنها .. ثم اختفى .. وصرخت في نومها تناديه .. ثم استيقظت والغرفة تسبح في ظلام دامس ..

–٨–

سافر كراسوس في اليوم التالي للريف، وفي المساء حضر فلافيوس إلى قصر جراكوس ومعه فارينيا كما وعد، وكان جراكوس يتناول عشاءه بمفرده حينما أنبأته إحدى الجواري بأن فلافيوس بالخارج ومعه امرأة تحمل طفلًا بين ذراعيها، فقال لها:

– نعم .. إني أتوقع حضورهما .. لقد أعددت مكانًا للطفل أدخليهما .. لا .. انتظري سأدخلهما بنفسي.

ونهض مسرعًا، حيث استقبلهما في أدب جم وترحيب بالغ وأدخلهما غرفة الطعام وهو يقول للمرأة أنها تستطيع تسليم الطفل للمربية أو تضعه بنفسها في فراشه الصغير الذي أعد له خصيصًا .. واللبن الذي يحتاجه دافئ وكل ما يحتاج إليه موجود ..

وكانت فارينيا ترتدي ثوبًا بسيطًا أبيض وتغطي وجهها ورأسها بقناع خفيف وبدون أي زينة أو مجوهرا ..

فقالت بصوت رخيم اهتز له شغاف قلب جراكوس:

– إنه لا يحتاج إلى طعام كثير ..

– كان أول مرة يسمع فيها جراكوس صوت فارينيا .. وحينما رفعت القناع عن وجهها .. ورأى شعرها الأصفر الطويل معقوصًا إلى الخلف، بهت لجماله .. كما بهت لفتنتها الطبيعية.

وكان فلافيوس يراقب وجه جراكوس وهو يتعبد في جمالها .. واستأذن في الانصراف ليعد الترتيبات اللازمة على أن يعود في الفجر .. وأومأ جراكوس برأسه موافقًا:

وانطلق جراكوس مع فارينيا إلى الغرفة التي أعدها للطفل حيث كانت تجلس احدى الجواري وقال:

– ستمكث بجواره طول الليل ولن يغمض لها جفن فلا تخافي ولن يحدث شيء لابنك، فإذا بكى سوف تستدعيك.

فقالت: إن الطفل سينام .. أنت رقيق وعطوف .. لكن الطفل سينام.

– ما أردت إلا أن اطمئنك على وليدك .. هل تناولت عشاءك؟ وأجابته وهي تضع ابنها في الفراش ..

– لم أتناول شيئًا ومع ذلك فلا أشعر برغبة في الطعام من شدة اللهفة والقلق .. أنا أحسب نفسي في حلم، وقد ترددت أول الأمر خشية أن يكون في الأمر مكيدة، ولكني أصدقكما بعد أن رأيت وجهك الطيب . ولست أدري لماذا تفعل ذلك من أجلي .. ويخيل إلي أني سأفيق من حلمي في أية لحظة.

– ولكنك ستجلسين معي .. وتشاركينني العشاء.

– أجل .. سأتعشى معك.

وعادت فارينيا مع جراكوس، وجلست في الجهة الأخرى من الأريكة تجاهه .. ولم يحاول الاقتراب منها، بل لم تفارق عيناه وجهها .. وهو يشعر في قرارة نفسه أنه سعيد لمجرد أن تضمهما غرفة واحدة، بل لقد أحس أن الحياة خالية من المتاعب والأحزان وأنه قد نال أخيرًا كل ما تمناه، كان كمن يتعبد في زهرة جميلة يانعة لا يفكر في لمسها حتى لا

يدنسها بأصابعه.

وقال لها:

– لماذا تظنين نفسك في حلم تخشين اليقظة منه؟ إني أعرف ما يطلبه كراسوس منك، بل لعله يتمنى أن يتزوجك إذا ما وافقت على طلبه، وكراسوس رجل عظيم، بل إنه من أعظم رجال روما .. ففي يده القوة والسلطة .. هل سمعت عن فراعنة مصر؟

– نعم ..

– حسنًا .. إن كراسوس أكبر من أي فرعون ولي عرش مصر .. وأمامك فرصة لتكوني أعظم من أية ملكة مصرية .. ألا يبعث ذلك السرور والغبطة في نفسك!

– مع الرجل الذي قتل سبارتاكوس؟

– آه .. لكنه لم يفعل ذلك بنفسه .. بل إنه لا يعرف سبارتاكوس ولا توجد أية ضغينة شخصية بينه وبين سبارتاكوس ومهما كان الأمر فلقد مات سبارتاكوس وأنت حية تعيشين، فلماذا ترفضين ما يعرضه عليك كراسوس؟

وأجابته فارينيا:

– أوثر أن أتسول ولا أقبل منه شيئًا.

– وماذا تطلبين يا فارينيا؟

– أطلب حريتي .. أطلب أن أغادر روما ولا أعود إليها ما دمت على قيد الحياة .. أريد أن أرى ابني ينمو حرًا كريمًا.

وسألها جراكوس في دهشة:

– أترين الحرية أغلى من المجد والثروة والجاه؟ لا يا فارينيا .. لا تكوني حمقاء .. ما هي الحرية التي تطلبينها .. الحرية أن تموتي من الجوع .. الحرية في أن تجوبي بلاد الأرض فقيرة شريدة بدون مأوى؟ الحرية في أن تفقدي نضارتك وجمالك وشبابك في أن تعملي

وتكدي وتشقي في الفلاحة كما يفعل المزارعون؟

وأجابته فارينيا:

– لا أستطيع أن أجعلك تفهمني .. لقد حاولت ذلك مع كراسوس ..

– ثم أنت تكرهين روما .. وأنا أحبها .. فهي دمي وحياتي .. أبي وأمي .. وأنا أعلم أن أمي منحلة متبذلة عاهرة ومع ذلك فأنا أفضل الموت عن أن أفترق عنها . أشعر بذلك الآن فأنا عاشق لهذه المدينة ولكنك تمقتينها وهذا ما يبعث في نفسي الدهشة والعجب .. هل كان سبارتاكوس يكره روما؟

– لقد كان ضد روما .. وكانت روما ضد سبارتاكوس .. أنت تعلم ذلك.

– وما الذي كان ينتويه إذا هدم روما .. ما الذي كان سيقيمه مكانها؟

– كان يتمنى أن يرى عالمًا خاليًا من العبيد والسادة .. عالمًا يعيش فيه كل الناس في محبة وأخوة وسلام كان يقول: «سنترك كل شيء حسن وجميل في روما .. ونستطيع أن نبني مدنًا بدون أسوار وبدون ضغينة أو حروب حتى تنتهي آلا الناس ويسعدون جميعًا».

وصمت جراكوس طويلًا .. ومضت فارينيا تتأمله في فضول ودون خوف أو رهبة .. وأدركت أنه يحمل داخل جسمه الضخم قلبًا طيبًا كريمًا تستطيع أن توليه ثقتها .. كانت فيه أشياء تذكرها بسبارتاكوس لا علاقة لها بالجسم أو الشكل .. بل في الروح فقط.

وأخيرًا غمغم يقول .. كأنه يواصل حديثها الذي لم ينقطع!

– إذًا .. كانت تلك أحلام سبارتاكوس . خلق عالم بدون سباط وبدون أحد يضرب بالسياط .. بلا قصور شامخة وبجوارها أكواخ قذرة حسنًا .. من يدري؟ وبأي اسم سميت ابنك يا فارينيا؟

– وهل يوجد في دنياي سوى اسم واحد؟ سبارتاكوس طبعًا ..

– أجل .. خير الأسماء .. سبارتاكوس .. وسيكبر شابًا فتيًا قويًا جميلًا .. هل ستحدثينه عن أبيه؟

– نعم .. سأخبره ..

– وما عساك تقولين له؟ كيف تستطيعن الإيضاح حتى يفهمك؟ سوف ينمو في عالم آخر غريب لم يخلق فيه أناس مثل سبارتاكوس . كيف يستطيع أن يفهم أنه ولد من رجل كان نقيًا وطيبًا؟

وسألته فارينيا:

– وكيف عرفت أنت أنه كان نقيًا وطيبًا؟

وأجابها جراكوس متعجبًا:

– أذلك من الصعب أن يدركه الناس؟

– نعم .. عسير على كثير من الناس أن يفهموا ذلك .. أتعلم بماذا سأحدث ابني .. سأقول له بكل بساطة أن أباه كان طيبًا ونقيًا .. لأنه كان يدير ظهره للمساوئ والرذائل .. ويقبل بوجهه نحو الفضيلة ..

– وكيف كان يميز بين الرذيلة والفضيلة؟

– كان يقول .. إن الرذيلة هي كل ما يضر الناس، وكل ما ينفعهم فهو الفضيلة ..

وأومأ جراكوس برأسه موافقًا وقال:

– أجل .. أنا أفهم أحلام سبارتاكوس جيدًا .. ولكني يا فارينيا رجل كهل لا أصلح للأحلام .. قضيت حياة طويلة كلها صراع وكفاح .. فلما وصلت القمة، وفتحت عيني أخيرًا رأيت الدنيا أمامي صغيرة .. تافهة .. وأدركت أخيرًا – خاصة بعد أن رأيتك يا فارينيا وسمعت منك ما سمعت .. أني عشت حياة كلها ضلال وعبث .. فاغفري لي شيخوختي يا فارينيا ..

ولأول مرة تبتسم فارينيا .. منذ أن فارقت سبارتاكوس .. ابتسمت ثم بدأت تضحك.. وما لبث الضحك أن انقلب دموعًا .. وألقت بوجهها على المائدة .. ثم بكت.

– فارينيا .. فارينيا .. هل قلت لك شيئًا يغضبك؟ أم لعلك لا تحبين الحديث مع مترهل قبيح الوجه مثلي؟

ورفعت رأسها تمسح عينيها وقالت:

– لا .. عفوًا .. لم أقصد ذلك . لقد أحببت سبارتاكوس رغم أنفه الأفطس، لأنه كان طاهر القلب مخلصًا أمينًا ولم يكن جميلًا مثلكم أيها الرومان، حتى وصف بعضهم وجهه .. بوجه الشاة . ليس الجمال جمال الوجه، بل جمال القلب والسريرة ..

وزالت الحواجز بينهما .. ومد جراكوس يده وأمسك بيدها وهو يقول:

– أتعرفين .. فيم فكرت بادئ الأمر يا عزيزتي؟ قررت أن أشتري ليلة معك لقاء أن أهبك حريتك .. ليلة حب وغرام، ولكني ما لبثت حتى طردت هذه الفكرة من نفسي، وقلت يكفي أن أحظى بليلة احترام وشرف .. ثم طردت هذه الفكرة أيضًا .. وقلت .. يكفيني أن أجلس إليها .. أشعر بعرفانها للجميل وأسمع منها كلمة شكر ورضاء .. ولكني الآن .. أعتقد أنك توليني من نفسك شيئًا أكبر من العرفان بالجميل .. أليس كذلك يا فارينيا؟

وغمغمت تقول:

– نعم .. بلا ريب ..

وكانت في حيرة وهي لا تعرف ما الذي يريده منها .. ومال على يدها فطبع قبلة وهو يقول:

– هل تبقين هذه البلد في يدي حتى تنقضي سويعات الليل .. وها هو ذا الفجر على وشك أو كاد؟ هل تجلسين بجواري وتتحدثين معي . وتطعمين قليلًا وتشربين قليلًا حتى ألمح السعادة في عينيك؟ وسيحضر فلافيوس بعد ذلك بالجياد وتغادرين روما للأبد؟ هذا كل ما أطلبه منك .. ولن أمسك بسوء يا فارينيا .. فهل تقبلين؟

– نعم .. نعم .. يسعدني كثيرًا ذلك يا جراكوس.

وقبل يدها مرة أخرى وهو يقول:

– لن أعرف كيف أشكرك .. لن أعرف كيف أشكرك!

– بل أنا التي نبغي أن أشكرك .. فلقد جعلتني أبتسم بعد كل ما لاقيت من بلاء ونكد .. وبعد أن فقدت دنياي وسبارتاكوس كنت أعتقد ان الحياة قد ذبلت .. ومات الخير واندثر ولكن سبارتاكوس كان دائمًا يقول .. ثمة بذرة طيبة في أعماق البشر .. إن تعهدوها .. نمت حبًا وإخلاصًا .. ولم أكن أفهم ذلك .. ولكني سعيدة جدًا .. وشاكرة أيضًا ..

– ٩ –

عاد فلافيوس قبل الفجر بساعة .. والدنيا ما تزال تسبح في ظلام دامس . وأدخلوه حيث جراكوس وفارينيا .. وكان جراكوس مستلقيًا فوق المقعد بادي الإرهاق والتعب .. لكنه سعيد .. وبجواره جلست فارينيا على الأريكة ترضع طفلها .. كانت متعبة أيضًا .. بيد أنها مشرقة العينين بادية النشاط واكنت وقتئذ مستغرقة في النظر إلى وليدها .. كأنما هي تصلى صلاة خافتة ..

ورفع جراكوس سبابته إلى شفتيه محذرًا فلافيوس بالا يقطع عليها صلاتها .. كانت في ظل المصباح الصغير .. أشبه بلوحة إلهية خالدة تصور الأمومة والحب والطهارة أروع تمثيل .. لوحة لم تستطع ريشة أي فنان في روما أن تصورها .. لوحة تعبر عن الجمال الروحي .. من غابر الأعوام والقرون .. قبل أن تفسد الدنيا وينتشر فيها الرياء والخبث ..

وحينما انتهت من ارضاعه، غطت ثديها ورفعت رأسها فشاهدت فلافيوس .. فوقفت كما وقف جراكوس .. وقال فلافيوس:

– لقد اشتريت عربة سريعة تجرها خيول مطهمة .. بذلك نستطيع أن نقطع أميالًا عديدة قبل أن يكشف كراسوس أمرنا .. وقد أعددت لك يا فارينيا مكانًا مريحًا ..

وكذلك لابنك .. أغطية كثيرة وطعامًا وافرًا .. يكفينا أسابيع إن شئت .

وخيل إليه .. أنهما لم يسمعا ما قال .. كانا يتأملان بعضهما .. الشيخ المترهل البدين .. وامرأة سبارتاكوس الفاتنة وبغتة – نظرت فارينيا للمربية وقالت لها: أتحملين عني الطفل لحظة؟ فلما تسلمته ذهبت فارينيا إلى جراكوس واحتضنته وهي تتحسن وجهه وذراعيه .. ثم شبت قليلًا وقبلته فوق جبينه .. وقالت:

– والآن .. أرى لزامًا علي أن أقول لك .. شكرًا على ما فعلته من أجلي .. وإذا قدر لي أن أعود فلسوف أرد لك صنيعك الطيب .. وداعًا أيها العزيز .. ولكن .. لماذا لا تأتي معنا؟

وقال فلافيوس:

– ألا تأتي معنا يا جراكوس؟

– لا .. وشكرًا .. ولتحل بكما البركة ومعكما سبارتاكوس العزيز .. كنت أود مرافقتكما ولكني مرتبط بروما .. فهي أمي ولن أقوى على فراقها .. وداعًا يا حبيبتي .. ولسوف يعتني فلافيوس بك حتى تصلي بر الأمان ..

ونظر إلى فلافيوس قائلًا:

– اعتن بها يا فلافيوس .. فأنت الآن من أثرى رجال الدنيا .. احرسها هي وابنها وأعبر بها جبال الألب .. ستجد الغاليين في الجهة الأخرى قومًا كرامًا .. ولا تدخر جهدًا في الإسراع .. وإذا ماتت جيادك من الإجهاد اشتر غيرها ولكن لا تتوقف حتى تصل سالمة .. أتعدني بذلك يا فلافيوس؟ هذا تصريح بتوقيعي لحرس البوابة .. خذه ..

– أقسم لك بأني سأفعل يا جراكوس .. فليسترح بالك ..

وألقى جراكوس عليها نظرة أخيرة ثم استدار عائدًا للداخل وهو يمسح دمعة في عينيه ..

***

لم ينم جراكوس .. بل عاد إلى مقعده يستعيد ذكرياته .. تذكر والده الذي كان صانع أحذية فقيرًا .. حينما كانت الصناعة اليدوية فخرًا حيث يأكل الرجل من عرقه وكد يده .. تذكر حياته السياسية في شوارع روما .. وجرائم الدم التي دبرها أو اشترك فيها ليكون ذا شخصية مهابة .. وكيف أرتشي ورشًا ليحصل على مركز سياسي مرموق .. كيف وقف دائمًا في شبابه ضد الحرية والفضيلة . لقد كان نذلًا وغدًا حقيرًا .. لكنها مميزات أوصلته سريعًا إلى سلم المجد حتى وصل للقمة .. ثم توقف ونظر خلفه .. فإذا هو على الجانب الخاطئ من الحياة .. وإذا هو إمام ضمير قد استيقظ فجأة وصار ينبح في أذنيه كالكلب المسعور .. لماذا فعلت كل ذلك يا جراكوس؟ لماذا وأدت الحريات وكبلت الأحرار بالأغلال؟ وما قيمة الثراء والمجد والشهرة؟ ها هي ذي امرأة جارية ركلت الحرير والذهب والحياة الناعمة الهنية .. بقدمها .. لقاء أن تحصل على حريتها .. لقد أسمت ابنها سبارتاكوس .. ولسوف يسمي ابنه سبارتاكوس .. وسينحدر هذا الاسم من أصلابها حتى يتحقق حلم ذلك النبي .. وينتصر الخير على الشر ويعيش الناس في محبة وصفاء.

ودق الجرس أمامه .. فأقبلت رئيسة الجواري .. وقام إلى مكتبه وصار يكتب صكوكًا ويختمها بخاتمه .. وهي لا تفهم ماذا يريد ..

وقال لها أخيرًا ..

– خذي هذه الأوراق .. أعطي لكل جارية ورقتها .. فهي صك يمنحا حريتها .. لقد أعتقتكن جميعًا، وأوصيت لكل منكن بجزء من أموالي يقيها ذل الحاجة والسؤال ..

– ولكن .. من الذي سيطهي لك طعامك .. من الذي سيرعاك؟

– لا تلقي هذه الأسئلة أيتها العجوز .. افعلي كما أمرتك ..

وانطلق إلى غرفته الخاصة، وكان القصر هادئًا لا تسمع فيه حركة، فما زال الصبح بعيدًا .. وأخرج سيفه من الصوان الكبير وجرده من غمده .. ثم اختبر حدة نصله ..

وابتسم وهو يفكر في الانتحار .. وكان قليل الثقة في نفسه .. هل يستطيع ذلك حقًا؟ هل تخونه شجاعته ويصرخ في طلب النجدة حينما يجرح نفسه ويروعه منظر الدم؟

وفي تلك اللحظة .. سمع صوت طرقات عالية على الباب .. فغمغم وهو يضحك ..

– ما أسرعك في الغضب يا كراسوس! وما أشد أنانيتك وحماقتك! لقد تمنيت أن تقبض على سبارتاكوس حيًا ثم تصلبه بنفسك فلما ضاعت منك فرصة العمر .. تحولت إلى امرأته تريد اقتناصها .. أردت أن تكون عشيقة لك .. فلما رفضت أن تقع في شراكك وتجثو أمامك على ركبتيها .. مضيت تحيك لها الأكاذيب وتصور لها ألوان المجد .. لكنها استعصت عليك أيها الشرير الفاسق .. لقد أفلتها من بين يديك .. ولن تنالني .. تنالني ..

وبحركة قوية دفع السيف في قلبه .. وكان الألم شديدًا جعله يصرخ..

وحينما اندفع كراسوس داخلًا .. كان جراكوس يسقط من على مقعده .. ويلفظ الروح على الأرض .. وعيناه تحملقان في غريمه .. نظرة تشف وانتقام ..

الفهرس

إهداء ٥

القسم الأول ٧

القسم الثاني ٢٥

القسم الثالث ٤٧

القسم الرابع ٧٢

القسم الخامس ٩٦

القسم السادس ١٢٠

القسم السابع ١٤٥